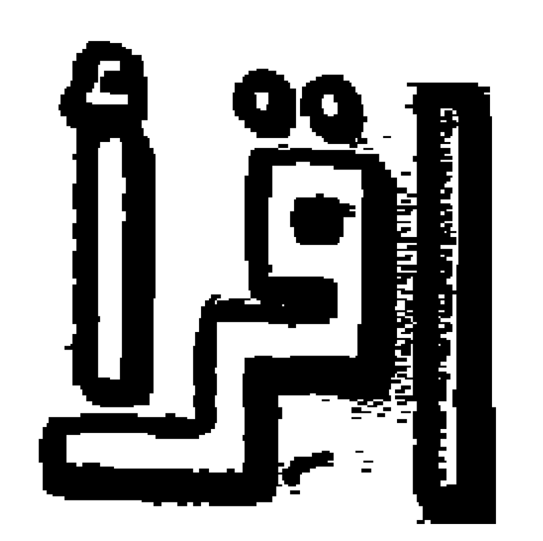


عبد الستار أحمد فراج

نديم الخلفاء

دار المعارف بمصر

نديم الخلفاء

عبد الستار أحمد فراج

نديم الخلفاء

اقرأ
١٠٩
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٠٩ – فبراير سنة ١٩٥٢



قصة الحياة التى قضاها الحسين بن الضحاك هى قصة الخلفاء والأمراء العباسيين من أيام هرون الرشيد إلى عهد من خلافة المستعين وصورة لحياتهم فى قصورهم ومجالس لهوهم ومجونهم .

وقد تفرقت أخبار الحسين بن الضحاك وأشعاره فى كتب الأدب والتاريخ . وهى أخبار فيها طرافة ومتاع ؛ وشعر فيه رقة وجمال فإذا أكثرت من إيراد شعر للحسين وتوسعت فى ذكر أخباره فذلك عمد مقصود لما نجده فى هذه الأخبار من قصة محبوكة الأطراف مشرقة الجوانب زاخرة بشتى الصور والألوان وكان عملى جمعاً بين الرواية والدراسة وتأليفاً بين القصص والتحليل .

العصر والبيئة

لا يحتاج العصر العباسى وخاصة أيام الرشيد ومن تلاه إلى تقرير ما بلغته الحياة من ترف ورفاهية تشبه ما تتحدث به الأساطير، واقتران تلك الحياة بنهضة فى الأدب وخاصة الشعر تساير ما هم فيه من متاع ونعيم. وكان شعر هذا العصر تصويراً متقناً لحياتهم وتعبيراً بديعاً عما انغمسوا فيه، أو دفعتهم الحياة إلى أن يستمتعوا به ويتذوقوه.

وأبرز ما يتضح من تلك الصورة هو العبث والمجون والخمريات والاستهتار فى ذلك كله. وإذا كان الرشيد ميالا إلى مظهر الورع والاحتشام فإن بنيه فى عهده وبعده إلا المأمون كانوا أصحاب لهو وخلاعة، يجتمعون للصبوح قبل أن يزف الصبح هاتف الأسحار، ويتداعون للغبوق رغبة فى السهر، قبل أن تجرى ليالى العمر إلى غاية الموت حثيثات سراعاً، ويتخيرون ألوان الجمال المتفتح المنبث فى كل مكان. يعرضون كل هذا فى مجالسهم ويحرصون على أن يستثيروا اللذة من مكامنها فى نفوسهم والشهوات من خفاياها فى دمائهم المشبوبة ويتحدثون بما انتهبوا من لذات وأرضوا من شهوات أو يدفعون بعض الناس إلى أن يتحدثوا به ويصوغوه

شعراً يتغنى به المغنون . وفى كل قصر صورة من هذه الحياة الصاخبة العابثة وفى كل ناحية مظهر من هذا المجون والاستهتار ، ووجد الشعراء فى هذا استجابة لرغباتهم وتمكيناً لنزواتهم وأحسوا بالرضا والقبول لافتنانهم فى القول وجموح الخيال فتسابقوا إلى تلك المجالس ليرتشفوا من نعيمها المتحلب وليظفروا بالهبات المغدقة والصلات المتتابعة .

فى هذا العصر الباسم الحالم وتلك البيئة الناعمة الهائمة وذلك الجو المتضوع بالنفحات نشأ وانغمس الحسين بن الضحاك . ويبدو أنه وهب وجاهة وقبولا ومنح رجاحة فى العقل وسداداً في التصرف ومهارة فى الحديث وصبراً على احتمال الحدود المرسومة فى مجالس الخلفاء والأمراء وقصورهم فمكن له ذلك — رجلا وكهلا وشيخاً — من أن تكون له دالة على سادة عصره ترتفع به إلى حد الجرأة أحياناً وتجاوز الحدود فى بعض الأحايين وإن كانت تُقبل تلك ويتجاوز عن هذا حملاً على محمل الفكاهة والإيناس .

وكانت للشعراء والأدباء مجالسهم الخاصة بهم تحوى ما تهفو إليه نفوسهم المتطلعة المتشوقة وتضم ما يرضى نزواتهم المتوثبة الجامحة ، فما تحدثنا الكتب أنه اجتمع داود بن رزين وأبو نواس وفضل الرقاشي والحسين بن الضحاك الخليع

وعمرو الوراق وحسين الخياط فى منزل عنان جارية الناطفى فتناشدوا إلى وقت العصر فلما أرادوا الانصراف قالوا : أين نحن الليلة ؟ فكلّ قال عندى ، فقالت عنان : بالله قولوا شعراً وارضوا بحكمى فقال كل منهم شعراً .

قال داود بن رزين :

قوموا إلى قطف لهـــو وظـــل بيت كنـــين
فيـــه من الورد والمـــر زنجـــوش والياسمـــين
وريح مســـك ذكى وفـــائح الـــزرجـــون
وقينـــة ذات غنـــج وذات دل رصـــين
تشـــدو بكل ظـــريف من صنعـــة ابن رزيـــن

وقال أبو نواس :

لا بـــل إلىّ ثقـــاتى قوموا بنـــا بحيـــاتى
قوموا نـــلذّ جميعـــاً بقـــول هـــاك وهـــاتى

وقال فضل الرقاشى :

لله درّ عقـــــار حلت ببيت الرقـــاشى
عذراء ذات احمـــرار إنى بهـــا لا أحاشى
قوموا نـــدامائى روّوا مشـــاشكم ومشـــاشى
وناطحـــونى بكأس نطاح صُلب الكباش
وإن نكلت فحـــلٌ لـــكم دمى ورياشى

وقال عمرو الوراق :

قوموا إلى بيت عمرو إلى سمــــاع وخمــر
وســاقيــات علينا تطاع فى كلّ أمــر
وبيســرى رخــيم يزهــو بجيــد ونحر
فهاك أحــلى وأشهى من صيد باز وصقر
هذا وليس عليــكم أولى ولا وقتُ عصر

وقال الحسين بن الضحاك الخليع :

أنا الخليع فقــوموا إلى شــراب الخليع
إلى شــراب لذيذ وأكل جدى رضيع
فى روضة جــادها صوب غاديات الربيع
قوموا تنــالوا جميعاً منــال ملك رفيــع

وقال حسين الخياط :

قضت عنــان عليكم بــأن تزوروا حســينا
وأن تقــرّوا لــديه بالقصف واللهــو عينا
فما رأينــا كظرف الحســين فيمــا رأينــا
قــد قرّبَ اللهُ منه زينــاً وباعــد شينا
قوموا وقولوا : أجزنا ما قــد قضيت علينا

وقالت عنــان :

مهلا فديتــك مهلا عنــان أحرى وأولى

بأن تنالوا لـــديها أسنى النعــيم وأحلى
وإن عنــدى حراماً من الشراب وحــلا
لا تطمعوا فى سوى ذا من الـــبرية كــلا
يا سادتى خــبرونى أجاز حكمى أم لا ؟

فقالوا جميعاً : قد أجزنا حكمك ، وأقاموا عندها .

ومجالس الخلفاء والأمراء والعظماء وما كان يجرى فيها تفيض به الكتب ونعرض لبعضه لما فيه من طرافة وجمال :

قال الحسين بن الضحاك :

شربنا يوماً مع الأمين فى بستان فسقانا على الريق وجد بنا فى الشراب وتحرز من أن نذوق شيئاً فاشتد الأمر على وقمت لأبول فأعطيت خادماً من الخدم ألف درهم على أن يجعل لى تحت شجرة أومأت إليها رقاقة فيها لحم فأخذ الألف وفعل ذلك ووثب محمد فقال : من يكون منكم حمارى؟ فكل واحد منهم قال له : أنا . لأنه كان يركب الواحد منا عبثاً ثم يصله ثم قال : يا حسين أنت أضلع[1] القوم فركبنى وجعل يطوف وأنا أعدل به عن الشجرة وهو يمر بى إليها حتى صار تحتها فرأى الرقاقة فتطأطأ فأخذها فأكلها على ظهرى وقال : هذه جعلت لبعضكم ؛ ثم رجع إلى مجلسه

---

(١) الأضلع : الشديد القوى الأضلاع .

وما وصلني بشيء . فقلت لأصحابي : أنا أشقى الناس. ركب ظهري وذهب ألف درهم مني وفاتني ما يمسك رمقي ولم يصلني كعادتي ما أنا إلا كما قال الشاعر :

ومطعم الصيد يوم الصيد مطعمه أنى توجه والمحروم محروم

وبلغ من استهتار الشعراء في ذلك العصر وانصراف أذهانهم إلى الخمر ووصفها أن يقتبسوا كل معنى ولو كان من القرآن الكريم فيصفوا به الخمر. ففي نهاية الأرب قال الحسين ابن الضحاك : كنت مع أبي نواس بمكة عام حج فسمع صبياً يقرأ « يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا » فقال أبو نواس في مثل هذا يجيء للخمر صفة حسنة ، ففكر ساعة ثم أنشدني :

وسيارة ضلت عن القصد بعدما ترادفهم أفق من الليل مظلم
فأصغوا إلى صوت ونحن عصابة وفينا فتى من سكره يترنم
فلاحت لهم منا على النأي قهوة كأن سناها ضوء نار تضرم
إذا ما حسوناها أقاموا مكانهم وإن مزجت حثوا الركاب ويمموا

فحُدث بهذا الحديث محمد بن الحسين فقال : لا ولا كرامة ما سرقه من القرآن ولكن من قول الشاعر :

وليل بهيم كلما قلت غوّرت كواكبه عادت لنا تتذيّل
به الركب إما أومض البرق يمموا وإن لم يلح فالقوم بالسير جُهّل

ولا يتورعون عن أن يتحدثوا بفضائحهم أمام الخلفاء ويجعلوها مثاراً للعبث والفكاهة . والخلفاء يطربون لذلك ويشربون عليه .

ولقد روت لنا الكتب ألواناً شتى مما كان يجرى فى العصر العباسى ؛ وإذا قرأنا شعر الحسين بن الضحاك وجدناه تعبيراً صادقاً ووصفاً دقيقاً يمثل زخارف القصور ومباهج النعيم وتفيض معانيه بما كانت ترجوه النفوس وينزع إليه الخيال فليست هناك رغبات حبيسة يكبتها الضغط فتلجأ إلى الظهور فى أثواب من الرياء مصطنعة بل انطلقت النفوس على سجيتها فى حرية متحللة من جميع القيود . وحياة الحسين بن الضحاك أنموذج كامل لتلك الحياة التى كان يحياها الناس فى العصر العباسى ممن أتيحت لهم بسطة فى المال أو تهيأ لهم مكان فى المجتمع المرفه إذ ذاك .

والذى يذكر للحسين بالتقدير والإعجاب أنه لم يصرف جهده فى المدائح ولم يكن ينزل إلى درك الاستجداء وإذا طلب شيئاً من الخلفاء والأمراء طلبه فى غير إلحاح ولا إلحاف ولم يذكر عنه شىء مما يطامن من كبريائه ويحط من قدره فى هذه الناحية إلا حادثة واحدة كانت بالبصرة ولعلها كانت فى نشأته الأولى بل كانت حقيقة فى نشأته الأولى حينما كان

تربا لأبي نواس فى البصرة يتأدبان ويتعلمان قبل أن يصل إلى بغداد ويشتهر بها أمره ويرتفع فيها قدره . روى ابن المعتز فى طبقاته وأبو الفرج فى أغانيه وأبو هلال العسكرى فى ديوان المعانى أن الحسين كان فى المسجد الجامع بالبصرة فدخل عليه أبو نواس وعليه جبة خز جديدة فقال له : من أين هذه يا أبا نواس ؟ فلم يخبره فتوهم أنه أخذها من مويس بن عمران لأنه دخل من باب بنى تميم فقام الحسين فوجد مويس بن عمران قد لبس جبة خز أخرى فقال له :

كيف أصبحت يا أبا عمران ؟

فقال مويس : بخير ، صبحك الله به .

فقال الحسين : يا كريم الإخاء للإخوان .

فقال مويس : أسمعك الله خيراً .

فقال الحسين :

إن لى حاجة فرأيك فيها ... إننا فى قضائها سيّان

فقال مويس : هاتها على اسم الله وبركته .

فقال الحسين :

جبة من جبابك الخز حتى ... لا يرانى الشتاء حيث يرانى

فقال مويس : خذها على بركة الله ومدّ كمه فنزعها، وجاء وأبو نواس جالس فقال :

ــ من أين لك هذه ؟

فقال الحسين : من حيث جاءتك تلك .

ورويت له أبيات قليلة يطلب فيها اصطناع المعروف من الخلفاء فى صراحة وتحديد للمطلوب فقد ذكروا أن ابنه محمداً توفى وكانت له أرزاق فمات فقطعت أرزاقه فقال يخاطب المتوكل ويسأله أن يجعل أرزاق ابنه المتوفى لزوجته وأولاده :

إنى أتيتــك شافعــاً بولى عهــد المســلمينا
وشبيهــك المعــتز أو جه شافع فى العــالمينا
يا ابن الخلائف الأولين ويا أبا المتــأخرينا
إن ابن عبــدك مات والأيام تخترم القــرينا
ومضى وخــلف صبية بعــراصه متــلددينا[1]
ومُهــيرة عــبرى خــلاف أقارب مستعبرينا
أصبحن فى ريب الحــوادث يحسنون بك الظنونا
قطع الولاة جــراية كانوا بهــا مستمسكينا
فامنن برد جميــع ما قطعوه غــير مراقبينا
أعطاك أفضــلَ ما تؤ مّل أفضــلُ المتفضلينا

فأمر المتوكل له بما سأل فقال يشكره :

---

(١) المتلدد : المتحير .

يا خير مستخلف من آل عباس   اسلم وليس على الأيام من باس
أحييت من أملى نضواً تعاوره   تعاقب اليأس حتى مات باليأس

وهذه الحادثة كانت من رجل منكوب على كبر السن فى ولد ترك ذرية ولا يستطيع هو أن يمدهم بشىء يجعلهم يعيشون فى المستوى الذى كانوا فيه .

وذكروا أن المعتصم أقطع الناس الدور بسر من رأى وأعطاهم النفقات لبنائها ولم يقطع الحسين بن الضحاك شيئاً فدخل عليه فأنشده قوله :

يا أمين الله لا خطة لى   ولقد أفردت صحبى بخطط
أنا فى دهياء من مظلمة   تحمل الشيخ على كل غلط
صعبة المسلك يرتاع لها   كل من أصعد فيها وهبط
بوّنى منك كما بوّأتهم   عرصة تبسط طرفى ما انبسط
أبتنى فيها لنفسى موطناً   ولعقبى فرطاً بعد فرط
لم يزل منك قريباً مسكنى   فأعد لى عادة القرب فقط
كل من قربته مغتبط   ولمن أبعدت خزى وسخط

فأقطعه داراً وأعطاه ألف دينار لنفقته عليها .

وتلك الحادثة فى عاصمة جديدة يريد أن يستقر بها فى دار يملكها . على أن مدحه للخلفاء والأمراء وطلبه منهم لم يكن فيه ما يشعر بالنقص وهبوط القدر فى عصر كانت

أموال الدولة وخزائن المملكة تحت تصرف الخلفاء يهبون من شاءوا كما يشاءون .

وإذا كان فى ذلك العصر شعراء نظموا فى الزهد والتقليل من شأن الحياة كمحمود الوراق وأبى العتاهية فإنما هم قلة لا يعتد بها ولا تجد لقولهم سميعاً إلا على أنه من الأدب المنظوم، ذلك لأن شعرهم كان مظهراً يخالف فعلهم ، يقولونه ولا يعملون به أو هو قول فى خريف العمر وإدبار الحياة والوقوف على شفا القبور، ومع هذا وذاك فقد كان صوتاً فى واد ، لا تحده مرتفعات ترجع صداه ، وقد انتهوا بعد أن كانوا كثمار تشذ عن أوانها ضئيلة ضامرة ولا ينالها إلا القليل، وفوق هذا فقد كانت بضاعة لا تجد لها رواجاً فى سوق من خلفوا الرشيد .

مجالس الشراب فى القصور

يذكر ابن المعتز قاعة لمجلس الشراب كانت لأحد الخلفاء ويعرض لما يدور فيها فيقول : بنى للمخلوع « محمد الأمين » مجلس لم تر العرب والعجم مثله قد صور فيه كل التصاوير وذهب سقفه وحيطانه وأبوابه وعلقت على أبوابه ستور معصفرة مذهبة وفرش بمثل ذلك من الفرش فلما فرغ من جميع أسبابه وعرف ذلك اختار لدخوله يوماً وتقدم بأن يؤمر الندماء والشعراء بالحضور غدوة ذلك اليوم ليصطبحوا معه فيه ففعلوا فلم يتخلف أحد فدخلوا فرأوا شيئاً لم يروا مثله قط ولم يسمعوا به من إيوان مشرف فائح فاسح يسافر فيه البصر وجعل كالبيضة بياضاً ثم ذهب بالإبريز المخالف بينه باللازورد بذى أبواب عظام ومصاريع غلاظ تتلألأ فيها مسامير الذهب قد قمعت رءوسها بالجوهر النفيس وقد فرش بفرش كأنه صبغ الدم منقش بتصاوير الذهب وتماثيل العقيان ونضد فيه العنبر الأشهب والكافور المصعد وعجين المسك وصنوف الفاكهة والشمامات والتزايين . فدعوا له وأثنوا عليه وأخذوا مجالسهم على مراتبهم عنده ومنزلتهم منه ثم أقبل عليهم

فقال : إنى أحببت أن أفرغ متعة هذا المجلس معكم وأصطبح فيه بكم وقد ترون حسنه فلا تنغصوا ذلك بالتكلف ولا تكدروا سرورى بالتحفظ ولكن انبسطوا وتحدثوا وتبذلوا فما العيش إلا فى ذلك . . . ثم لما طعموا أتى بالشراب كأنه الزعفران أصفى من وصال المعشوق وأطيب ريحاً من نسيم المحبوب وقام سقاة كالبدور بكؤوس كالنجوم فطافوا عليهم وعملت الجوارى من خلف الستائر بمزاهرها فشربوا معه من صدر نهارهم إلى آخره فى مذاكرة كقطع الرياض ونشيد كالدر المفصل بالعقيان وسماع يُحيي النفوس ويزيد فى الأعمار فلما كان آخر النهار دعا بعشرة آلاف دينار فى صوانى فأمر فنثرت عليهم فانتهبوها والشراب بعد يدور عليهم بالكبير والصغير من الصرف والممزوج وليس يمنع أحد منهم مما يريد ولا يكره على ما يأباه » .

لقد كان للحسين فى هذه المراتع والمجالس نصيب وافر يغشاها بعد أن اشتهر أمره وذاع ذكره ، ورققت حواشيه مجالسُ صالح بن الرشيد، فأعدته تلك المجالس إلى أن يتسامع الناس بظرفه وطيب أحاديثه وعذب شعره فيتلقفه مجتمع أوسع مجالا وأسبغ نعمة وأكثر مرحاً وأبلغ اهتماماً بالخلاعة والخمر والمجون . وهذه المناظر الخلابة وتلك الحياة الصاخبة وما يكفله

أصحاب السيادة فيها من رزق موفور للندماء والشعراء تطلق اللسان العيي وتفجر الجنان الأصم وترقق القلوب الجامدة وتفتق الخيال المنطوى فما بالك إذا كانت الشاعرية متوثبة واللسان طلقاً والقلب جموحاً ! وقد وصل الخليع إلى المرتبة التى نالها بجدارة فى هذا المضمار فرتبت له أرزاق وقدر له عطاء وكفل له عيش هنىء أغناه عن السعى فى طلب المعاش وصانه عن تكلف المديح ، لاستدرار الأرزاق من كل ناحية ، ولم يكن الخليع نهماً إلى جمع المال وتضخيم الثروة فهو بما وصل إليه قانع وعن نفسه راض وبحياته التى يحياها قرير وإنها لحياة ما له فى دونها وطر

الديارات

ومن مغانى اللهو ومراتع اللذة تلك الديارات المنبثة على شواطئ الأنهار فى العراق حيث كانت تقصد للتنزه والاستمتاع لما يحيط بها من البساتين ، ويترقرق حولها من المياه ، ويتجاوب فى جنباتها من أغاريد ومزامير ، تنساب فى هدوء الليل وأنفاس السحر فينشط لها أولئك الذين جعلوا دأبهم مبادرة اللذات ومباكرة الصبوح . وإن فى دقات النواقيس وصياح الديكة وصخب الدجاج لإيذاناً بمعاقرة خبيئات الدنان وتنفيساً عما يخامر الصدور من لواعج الغرام .

ولم يقتصر أمر زيارتها والاستر واح بمجاليها على الشعراء والأدباء بل تعدى ذلك إلى الخلفاء والأمراء وقد أخذ الحسين من هذا بنصيب موفور فما كانت تطيب لهم اللذات إلا إذا شاركهم فيها من يجتبون من واصفى هذا المتاع وذلك النعيم . فدير مديان على نهر كرخايا قرب بغداد ، وكان ديراً حسناً حوله بساتين وعمارة ، نزله المعتصم ومعه الحسين بن الضحاك فقال فيه :

حُث المدام فإن الكأس مترعة بما يهيج دواعى الشوق أحيانا

إني طربت لرهبان مجاوبة بالقدس بعد هدوّ الليل رهبانا
فاستنفرت شجناً مني ذكرت به كرخ العراق وأحزاناً وأشجانا
فقلت والدمع في عيني منحدر والشوق يقدح في الأحشاء نيرانا

يا دير مديان لا عُرّيت من سكن
ما هجت من سقم يا دير مديانا
هل عند قَسك من علم فيخبرني
أن كيف يسعد وجهُ الصبر مَنْ بانا
سقيا ورعيا لكرخايا وساكنه
بين الجنينة والروحاء من كانا

وقد تقوم الحانات بالقرب من تلك المراتع وتحوى من مديرى الكؤوس ومرتلى الألحان من يدير اعتدال قوامهم وحسن وجوههم ولحظات عيونهم رءوسَ الشاربين :

يا «عمر نصر» لقد هيجت ساكنة
هاجت بلابل صب بعد إقصار
لله هاتفة هبت مرجعة
زبور داود طوراً بعد أطوار
يحثها دالق(١) بالقدس محتنك
من الأساقف مزموراً بمزمار

(١) دلق البعير شقشقته : أخرجها ولا يكون ذلك إلا بصوت من هديره وقد استعار ذلك لصوت الراهب وهو يرتل .

عجت أساقفها فى بيت مذبحها
وعج رهبانها فى عرصة الدار
خمار حانتها إن زرت حانته
أذكى مجامرها بالعود والغار
يهتز كالغصن فى سُلب مسودة
كأن دارسها جسم من القار
تلهيك ريقته عن طيب خمرته
سقيا لذاك جنى من ريق خمار
أغرى القلوبَ به ألحاظُ ساجية
مرهاء [1] تطرف عن أجفان سحار

وبعد افتضاض بواطى الخمر وأباريق المدام وارتشاف ما تحويه من شراب يشع كاللهب مصبوغاً بالدماء يُغرق اللاهون فى المجون وينهمكون فيما تذهب به الظنون كل مذهب:

وعواتق باشرت بين حدائق ففضضتهن وقد غنين صحاحا
أتبعت وخزة تلك وخزة هذه حتى شربت دماءهن جراحا
أبرزتهن من الخدور حواسراً وتركت صون حريمهن مباحا
فى «ديرسابر» والصباح يلوح لى فجمعت بدراً والصباح وراحا
فاذهب بظنك كيف شئت وكله مما اقترفت لذاذة وجماحا

(١) المرهاء: العين الخالية من الكحل.

ولا يريد الحسين أن تكتحل العيون بالنوم بين هذه المغانى وتلك الكؤوس ونقر النواقيس ونجوى الحمام :

من لصب لا يرعوى لملام نضو كأسين من هوى ومدام
عاد من لوعة الصبابة بالكا س وخلى الملام للوّام
يا نديمىّ لا تناما عن الرا ح ولا ترقبا سفور الظلام
هاجنى للصبوح نقر النواقيـ س ونجوى حمامة وحمام
فاصبحانى قبل الصبوح مداماً قهوة مزة بماء غمام
وألمّا على المنازل بالقف ص فنوحا نياحة المستهام

وهو يقول فى دير عمر مريونان — وإن كانت قد نسبت إلى أبى نواس فى ديوانه ما عدا البيت الرابع منها .

آذنك الناقوس بالفجر وغرد الراهب فى « العمر »
واطردت عيناك فى روضة تضحك عن حُمر وعن صُفر
وحنّ مخمور إلى خمرة وجاءت الكاس على قدر
فارغب عن النوم إلى شربها ترغب عن الموت إلى النشر

ولما قال الحسين بن الضحاك قصيدته الآتية فى دير سرجس

أخوىّ حىّ (١) على الصبوح صباحاً
هبّا ولا تعدا الصباح رواحا

---

(١) حى : كلمة يدعى بها يقال : حى على الصلاة أى هلموا .

هذا الشّميط (١) كأنـــه متحـــير
في الأفق سُد طريقه فألاحا(٢)

ما تأمران بقهوة قروية قرنت إلى درك النجاح نجاحا
مهما أقام على الصبوح مساعد وعلى الغبوق فلن أريد براحا
عودا لعادتنا صبيحة أمسنا فالعود أحمد مغتدى ومراحا
هل تعذران بدير سرجس صاحباً بالصحو أو تريان ذاك جُناحا؟
إني أعيذكما بألفـــة بيننا أن تشربا بقرى الفرات قراحا
عجت قواقزنا(٣) وقدّس قسّنا هزجاً وأصخبنا الدجاجُ صياحا
للجاشرية(٤) فضلها فتعجلا إن كنتما تريان ذاك صلاحا
يا ربّ ملتبس الجفون بنومة نبهته بالراح حين أراحا (٥)
فكأن ريّا الكاس حين ندبته للكاس أنهض في حشاه جناحا

أنشدها لأبي نواس ذات يوم عند باب أم جعفر من الجانب الغربي فلقيه أبو نواس بعد أيام في ذلك الموضع فأنشده :

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا وأملّه ديك الصباح صياحا
أوفى على شرف الجدار بسدفة غرداً يصفق بالجناح جناحا

---

(١) الشميط : الصبح .
(٢) ألاح : أومض أو تلألأ .
(٣) القواقز : جمع قاقوزة وهي القدح .
(٤) الجاشرية : شرب يكون مع الصبح .
(٥) أراح : صار ذا راحة .

فغضب الحسين وسب أبا نواس فقال له أبو نواس : دع عنك هذا فوالله لا قلت فى الخمر شيئاً أبداً وأنا حى إلا نسب إلىّ .

ويبدو أن الديارات كان لما تحفل به من الكروم التى تفيض عناقيدها عن الحاجة إليها ولما فيها من أقبية وطيب هواء ـ يعنى من فيها بتعتيق الخمر لتباع إلى راغبيها فتكون مصدراً للربح وتوفير المال ليعيش عليه من يقيمون فيها من الرهبان .

الغناء

بلغ الغناء فى العصر العباسى من المنزلة ما جعل الخلفاء يتعلمون أصوله وقواعده ويلحنون الشعر ليتغنى به المغنون والقيان وكانت مجالسهم لا تخلو منه . وللمغنين عندهم مراتب عالية وكانوا يمنحونهم الأموال الوفيرة فإن كمال لذاتهم وتمام أنسهم لا يكون إلا بالعزف والغناء . وبعد أن كانوا إلى عهد الرشيد يتغنون بشعر القدامى غالباً صاروا يتغنون بشعر من اصطفاهم الخلفاء والأمراء لأنه يصف أحوالهم ويمس حياتهم التى يتعشقونها فى صميمها ومالوا إلى أن يكون قولهم شعراً رقيقاً سهلا خفيفاً على الأسماع قصير الفقرات وكانوا يقترحون على الشعراء أن يقولوا فى الغرض الذى يرمون إليه ليلقى على المطربين بعد أن يلحنه الخبيرون وإن لهذه الألحان عند أصحابها لدفاتر تعرض على من شاء ليتخير منها ما يريد أن يلقى على جواريه . وكانت الجارية التى تجمع إلى جمالها حسن الصنعة وحلاوة الصوت تظفر من الرضا والإعجاب والتكريم بما لا يدانيها فيه غيرها .

ومن أسباب شهرة الحسين الخليع أن اقترح عليه صالح بن الرشيد عمل شعر يغنى فيه ففعل ووفق فوجدوا فيه طلبتهم

يقترحون عليه وكان هو رقيق الحس يفهم باللحظ ما يراد من القول لأنه كان يشارك أيضاً فيما يفعلون وما يحسنون .

وكثير من شعر الحسين لحنوه حتى ما كان فى الرثاء . والكثرة الغالبة فى شعره تصلح أن تكون ألحاناً رقيقة وأنغاماً عذبة. وهنا أسوق قصة أوردها ابن أبي طاهر فى كتاب بغداد وأبو الفرج فى الأغانى لما فيها من طرافة ولأنها مصداق ما أقول :

يذكر عمرو بن بانة أنهم كانوا عند صالح بن الرشيد فقال صالح لعمرو : لست تطرح على جوارى وغلمانى ما أستجيده . فقال له عمرو : ابعث إلى منزلى فجيء بالدفاتر واختر منها ما شئت حتى ألقيه عليهم فبعث إلى منزله فجيء إليه بدفاتر الغناء فأخذ منها دفتراً ليتخير مما فيه فمر شعر الحسين بن الضحاك يرثى الأمين ويهجو المأمون وهو :

أطل حزنا وابك الإمام محمدا بحزن وإن خفت الحسام المهندا

فقال له صالح : أنت تعلم أن المأمون يجيء إلىّ فى كل ساعة فإذا قرأ هذا، ما تراه يكون فاعلا ؟ ثم دعا بسكين فجعل يحكه. وصعد المأمون من الدرجة ورمى صالح الدفتر فقال المأمون: يا غلام . الدفتر. فأتى به فنظر فيه ووقف على الحك فقال : إن قلت لكم ما كنتم فيه تصدقونى ؟ قالوا : نعم . قال : ينبغى أن يكون أخى قال لك : ابعث فجيء بدفاترك ليتخير

ما تطرح على جواريه فوقف على هذا الشعر فكره أن أراه فحكه قلنا : كذا كان . فقال : غنه يا عمرو . فقال : يا أمير المؤمنين الشعر لحسين بن الضحاك والغناء لسعيد بن جابر — وسعيد كان نديم الحسين وصديقه — فقال : وما يكون ؟ غنه . فغنيته فقال : اردده . فرددته ثلاث مرات فأمر لى بمال كثير وقال : حتى تعلم أنه لم يضرك عندى » .

وهذه أبيات لحنوها فى عهدهم وإنها لجديرة بالتلحين والغناء وهى مطلع قصيدة هنأ بها الواثق بالخلافة فاتصلت أيامه بعد ذلك ولم يزل من ندماء الواثق :

أكاتم وجدى فما ينكتم بمن لو شكوت إليه رحم
وإنى على حسن ظنى به لأحذر إن بحت أن يحتشم
ولى عند لحظته روعة تحقق ما ظنه المتهم
وقد علم الناس أنى له محب وأحسبه قد علم
وإنى لمغض على لوعة من الشوق فى كبدى تضطرم
عشية ودعت عن مقلة سفوح وزفرة قلب سدم (١)
فما كان عند النوى مسعد سوى العين تمزج دمعاً بدم
سيذكر من بان أوطانه ويبكى المقيمين من لم يقم

(١) السدم : الحزين النادم .

الغزل

كان شعراء الغزل فى العصر العباسى — وما أكثرهم — لا يقتصرون على إنسان واحد يؤثرونه بالحب ويفيضون فيه القول ولم تلازم حبهم الروحية التى تصون المحبوب من العبث والمجون وإنما كان دأبهم تلمس الجمال فى كل موطن والتطلع إلى الحسن أينما كان ولا يريدون إلا أن يستمتعوا به ويرتشفوه ففى أحشائهم تضطرم نار الشهوات وفى نفوسهم تلتهب حرارة الدماء وفورة النزوات وهم يتحدثون فى فخار بما قضوا من وطر ويشكون فى حسرة مما كابدوا من ألم إذا أفلتت الفرصة من أيديهم أو امتنعت عليهم مصادر اللذات . وليس هذا الذى يحدث بينهم بعجيب فإنما هى جوار وغلمان أعدهم تجار ذوو مهارة ودراية لا يرجون من إعدادهم إلا المكسب الوفير والربح الجزيل فتداولتهم أيد كثيرة وتقلبوا فى منازل متباينة ونقدتهم أكف حساسة وأعين خبيرة وكان للخمر وما تبعثه من نشوة وللغناء وما ينشره من جو حالم وللتملك وما تحمل معانيه من غلبة وسطوة أكبر الأثر فى انهيار الحصون وتسليم القياد . فليس غريباً إذن أن يكون غزل الشعراء منبثاً عن الاستجابة لهدير الفحول لأنه الصورة الصادقة

لحقيقة الواقع فى تلك الحياة .

والحسين الخليع كان يهيم بالجمال هيام أهل عصره ويتحدث عنه حديثهم ويستمتع به كما يستمتعون . قال له قائل أى شىء كان خبرك أمس ؟ فقال اسمعه شعراً :

زائرة زارت على غفـلة يا حبـذا الزورة والزائره
فلم أزل أخدعها ليلـتى خديعـة الساحـر للساحره
حتى إذا أذعنت بالرضا وأنعمت دارت بها الدائره
بت إلى الصبح بها ساهراً وباتت الجوزاء بى ساهره

. . . .

ويبدو أن الجوارى المغنيات كن يألفن المنازل ولا يتورعن من دخول البيوت ولعلهن كن يقصدن مشهورى الشعراء ليأخذن من شعرهم ما يتغنين به .

أو لعلهن كن يخشين من الهجاء الذى يؤدى بهن إلى كساد الحال ، فالحسين نفسه هجا مغنية فهربت وانقطع خبرها . وهو قد يثور حيناً ولعل ثورته للحرمان ويحاول السلو فلا يستطيع وينذر الحبيبة بألا يغرها صفحه وعلى الرغم مما فى هذه الأبيات التى سنرويها من مظهر الحرارة وتأجج العاطفة وادعاء الإخلاص فإنها تستدعى فى أذهاننا شعراً آخر لعلها تقليد له وتشبيب بما ليس له حقيقة :

كأنى إذا فارقت شخصك ساعة لفقدك بين العالمين غريب
وقد رمت أسباب السلو فخانني ضمير عليه من هواك رقيب
فمالى إلى ما تشتهين مسارع وفعلك مما لا أحب قريب
أغرك صفحى عن ذنوب كثيرة وغضى على أشياء منك تريب
كأن لم يكن فى الناس قبلى متيم ولم يك فى الدنيا سواك حبيب
إلى الله أشكو إذ ذكرت فلم يكن لشكواى من عطف الحبيب نصيب

ألا تذكر هذه الأبيات بقول امرئ القيس

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
أغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

ولكن الحسين يدعى الوفاء وأنه مذ عرف محبوبه لا يناجى غيره والحبيب يتجنى عليه ذنوباً لم يرتكبها :

بنفسى حبيب لا يمل التعتبا إذا زدته فى العذر زاد تغضبا
يطيل ضرارى بامتحان صبابتى وقد علم المكنون منها المغيبا
فلست أناجى غيره مذ عرفته وأنظر إلا خائفاً مترقبا
أيا من تجنى الذنب أعلم أنه على ثقة أن لست بالغيب مذنبا
أما لخضوعى من ضميرك شافع من السقم قد يشفى الملح المعذبا

يخيل إلى أن كل شعر يتغزل فيه الحسين بن الضحاك على طريقة ذكر الوفاء والتعجب من القلب الذى يقيم للغادر على العهد حتى يكاد يقتله الوجد ، وادعاء أنه لم يطرف له جفن

إلا وذكر الحبيب خاطر بفؤاده إنما هو شعر قاله فى عهده الأول قبل أن يندمج فى مفاتن بغداد سواء كان ما قاله صادقاً فيه أم تقليداً لما كان يحفظه إذ ذاك .

الخمر

يقول الصولى فى كتاب أشعار أولاد الخلفاء : سمعت بعض العلماء بالشعر يقول : أول الشعراء المتقدمين فى صفة الخمر الأعشى ثم الأخطل ثم أبو نواس ثم الحسين بن الضحاك ثم عبد الله بن المعتز . وفى ديوان أبى نواس المخطوط رواية الصولى يقول الصولى أيضاً : ولو يعلق بكلام أبى نواس فى الخمر والمجون كلام أو شابهه مشابهة تخفى لكان شعر الحسين بن الضحاك . أما أبو الفرج فى أغانيه فينصفه حيث يقول : كان أبو نواس يأخذ معانيه فى الخمر فيغير عليها ، وإذا شاع له شعر نادر فى هذا المعنى نسبه الناس إلى أبى نواس وله معان فى صفتها كان سابقاً إليها فاستعارها أبو نواس .

والحق أن هناك معانى سبق إليها الخليع وتبعه الشعراء من بعده . فقد وصفوا حبب الخمر وشبهوه بالدر وتكلموا عن مزجها بالماء وتفاعله معهاوتصاعد الحبب على سطح الكاس ولكن الحسين رأى مرة فى هذا الحبب استدارات كرءوس الواوات تجر وراءها ذيولا كذيول الواوات ولكن الاستدارة وما يصحبها من ذيول لا تستقيم ولا تتصل وإنما هى ككتابة الأعسر أو العسراء حيث

لا يحسنان – فى رأيهم – استقامة الحروف واتصالها فيقول :

يحكى تطوقها بالكأس من ذهب طوقاً أطافت به واوات عسراء

فيأخذ أبو نواس المعنى فيقول :

كتب المزاج على مقدم تاجها سطرين مثل كتابة العسراء

ويقول أبو نواس عن الحبب أيضاً :

خلـته فى جنبات الـ كأس واوات صغـارا

ويرى الخليع مرة أخرى أن هذا الذى يجلل الكأس بعد المزج بالماء شبيه بجلد الحية الرقشاء فيقول :

كأن تأليف ما حاك المزاج لها سلخ تجللها عن ظهر رقشاء

فيأخذ أبو نواس المعنى والصورة فيقول :

كأن مازجها بالماء طوقها منزوع جلدة ثعبان وأفعاء

ويشبه الحسين الخمر بدمعة العين المرهاء أى الخالية من الكحل حتى تكون كاملة الصفاء فيقول :

فضت خواتمها فى نعت واصفها عن مثل رقراقة فى جفن مرهاء

فيغير عليه أبو نواس ويقول :

أتى بها قهوة كالمسك صافية كدمعة منحتها الخدَّ مرهاءُ

والحسين يرى أن الشارب والخمر كالقمر يرتشف من بعض نجوم الفلك :

كأنمـا نصب كأسه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك

فيغير أبو نواس على المعنى ويبدع فى إبرازه :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

وفى قصيدة الحسين بن الضحاك الهمزية التى مطلعها :

بدلت من نفحات الورد بالآء ومن صبوحك در الإبل والشاء

والتى هى أطول ما عرف له من قصائد قصرها على وصف الخمر وعارضه أبو نواس لما أن سمعها بقصيدته :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

وعارضها ابن المعتز بقصيدته :

أمكنت عاذلتى من صمت أباء ما زاده النهى شيئاً غير إغراء

يتتبع الحسين الخليع نشأة الخمر حيث أودعت عروق كرومها التى تخير أجود أنواعها النعمان الأكبر فى أرض سهلة لينة :

راح الفرات عليها فى جداوله وباكرتها سحابات بأنواء

فاستنفض القطر ما وشى المصيف لها

واستبدلت جُدداً من بعد إفضاء

تنشى فواصل[1] كالآذان منشأة مثل الجمان عقوداً أى إنشاء

فلما استوى ثمرها عناقيد دهماء بين أوراق خضراء انطلق إليها جماعات شعث لوحتهم الشمس فى سراويلهم الصغيرة

---

(١) الفواصل: جمع فاصلة وهى الخرزة تفصل بين الخرزتين .

الداكنة يتخيرون ما حقه أن يجنى ويقطف ثم يهال ماجنوه فى خابيات واسعة ليستخلص منه أطيب عصيره ثم تدفن قدور العصير فى مكان لا بارد ولا حميم :

حتى إذا أنضح الوسمى صفحته قطراً وأعقبه قــرا بأنداء
صينت عن الشمس فى قيطون(١) محتنك
من اليهود لأم الراح غداء
ما زال يهملها كالمستخف بها عصر الشباب كناس غير نساء
يطرى سواها إذا سيمت مدافعة عنها ويوسعها من كل إزراء
يسومها البيع أحياناً فيمنعه أن قد يؤملها يوماً لإثراء
حتى إذا الدهر أبقى من سلالتها جزء الحياة وقد ألوى بأجزاء
دبت إليه من الأحداث باسلة أبكت عوابد من أحبار تيماء
فمات والقلب مشغول بحظوتها لم يشف من شجنيه علة الداء
حتى إذا أسندت للشرب واحتضرت
عند الشروق لبسامين أكفاء
فضت خواتمها فى نعت واصفها عن مثل رقراقة فى جفن مرهاء

وهى فى صفاتها لا تكاد تراها العين إلا وهماً وتتسلل أفاعيلها :

تمازج الروح فى أخفى مداخله كما تمازج أنوار بأضواء

(١) القيطون : مثل المخدع .

لا يدرك الحس منها حين تبعثها　　إلا التنسم أو لدغاً بأحشاء

وأنها ريحانة النفوس التي تهواها فإذا مزجت بالماء تراقصت وهاج في قعرها الحبب متصاعداً وحينئذ :

يحكي تطوقها بالكأس من ذهب　　طوقاً أطافت به واوات عسراء

وأصبح من تفاعلها لها عرش على الماء لكنه :

عرش بلا طنب من فوقه زبد　　قد جل عن صفة في حسن لألأ

فلا يستطيع النظر أن يتأمل سنا أنوارها إلا إذا كانت له لحظات كلحظات الحولاء وتراها :

كأن تأليف ماحاك المزاج لها　　سلخ تجللها عن ظهر رقشاء

لا شيء أحسن منها في تصرفها　　من كف منتطق الأعطاف وشاء

فإذا سنحت لك تحت جنح الليل أشرقت في جنبات نفسك ، وهي في رأيه :

تلك التي وسمتني غير محتشم　　وسم المجون وسمتني بأسماء

لا أتبع اللهو فيها غير مترعة　　منها تفنن لي في كل سراء

ما أطيب العيش لولا ذكر واحدة　　فيها مفارقة بين الأحباء

هذا النعيم ولا عيش تكون به　　هند برابية من بعد أسماء

وكيف لا يعنى الحسين بالخمر وقد كانت سبيله إلى نيل أوطاره وبلوغ مآربه .

وإنه ليتحساها حتى يوشك الليل أن ينقضى فيهوّم تهويمة

المنتشى فيسند رأسه على كفه وقد فعلت فيه ما يريدها أن تفعله :

ما زلت أشربها والليل معتكر   حتى تضاحك فى أعجازه القمر
ثم انثنيت على كفى وقد أخذت   منى مآخذ ما فى دونها وطر

وإنه ليحيي ساقيه ويلح عليه أن يحيف عليه فى الشرب . فقد خبر الحياة ورأى أن الأشقياء هم من عدمو الكؤوس :

يا مدير الكأس حييـ   ـت عـلى الكاس مديّا
سأقـول الدهـر أحسـ   ـنت وإن كنت مسيّا
لست أستعفيك من حيـ   ـنك فى السقى عليـّا
قد حلبت الدهر طور   ين خليـّـاً وشجيّا
فأرى مَنْ عَدم الصبـ   ـوة والكاس شقيـّا

الهجاء

يذكر أبو الفرج وغيره أن الحسين بن الضحاك هاجى مسلم بن الوليد فانتصف منه .

وعلى الرغم مما قرأته من مصادر مخطوطة ومطبوعة لم أجد شعراً للحسين يهجو به مسلم بن الوليد . وديوان مسلم خال من هجاء الحسين بن الضحاك . حقيقة أن مسلم بن الوليد عاش إلى سنة ٢٠٠ وأنه كان من فحول الشعراء وأنه اجتمع فى مجالس مع الحسين وقد يحدث بينهما من الاحتكاك والملاحاة والتنافس ما يدعو إلى الهجاء ولكنا لم نعثر عليه .

والهجاء الذى عثرنا عليه فى غير مسلم يبدو عليه الفتور والركاكة ولعل الحسين لم يكن يقصد إليه بطبعه وإنما يكره على قوله إكراهاً . وسترى فى نوادره وأخباره هجاء طلب منه أن ينظمه، وإنى لأذكر بعضاً آخر مما أثر عنه من هجاء .

كان محمد بن الحارث بن بسخنر لا يرى الصبوح ولا يؤثر على الغبوق شيئاً ويحتج بأن من خدم الخلفاء كان اصطباحه استخفافاً بالخدمة لأنه لا يأمن أن يدعى على غفلة ، أما الغبوق فإنه يؤمنه من ذلك . وكان المعتصم يحب

الصبوح فكان يلقب ابن بسخنر الغبوقى فقال فيه حسين بن الضحاك وفى حاتم الريش الضراط وكان من المضحكين :

حب أبى جعفر للغبوق كقبحك يا حاتم مقبلا
فلا ذاك يعذر فى فعله وحقك فى الناس أن تقتلا
وأشبه شىء بما اختاره ضراطك دون الخلا فى الملا

فانظر إلى قوله «وحقك فى الناس أن تقتلا» وانظر إلى الشطر الأخير وستجدهما من سقط الكلام تعبيراً وتركيباً ولكنه قد يكون بالنسبة إلى عصرهم نوعاً مقذعاً فى الهجاء .

والهجاء القوى هو الذى قاله فى العباس بن المأمون وذلك فى أيام خلافة المعتصم :

خل اللعين وما اكتسب لا زال منقطع السبب
يا عُرة الثقلين لا ديناً رعيت ولا حسب
حسدُ الإمام مكانه جهلا حذاك[1] على العطب
وأبوك قدمه لما تخير وانتخب
ما تستطيع سوى التنفس والتجرع للكرب
ما زلت عند أبيك منتقص المروءة والأدب

---

(١) حذاك على العطب : جعلك محاذياً له يريد أنه قادك إليه وأوقعك فيه .

الشاعر

ألا إنما الدنيا وصال حبيب   وأخذك من مشمولة بنصيب
وعيشك بين المسمعات ممتعاً   بفنين من عزف وشدو مصيب
ولم أر فى الدنيا كخلوة عاشق   وبذلة معشوق ونوم رقيب
وعدّىَ ساعات النهار ورقبتى   إلى الشمس لما آذنت بمغيب

تلك صورة صادقة للحياة التى عاشها الحسين بن الضحاك الخليع دارت فى خلده وجرت على لسانه نغماً عذباً وشعراً رقيقاً فقد استمتع بوصال من هفا إليه قلبه ونهل وعبّ من رحيق بنت الكروم وظفر عند الخلفاء والأمراء بالحظوة والقرب فاستمع إلى أنات الأوتار ونفثات المزمار بين جو من سحر الغناء وبهجة الطرب وقد وهبه الله من طول العمر وفسحة الأجل ما جعله يتذوق لذائذ الدنيا ومتع الحياة .

وهو أبو علىّ الحسين بن الضحاك بن ياسر الخليع الأشقر باهلى بالولاء وقيل بالنسب من شعراء الدولة العباسية المبرزين . وإنه ليحدثنا عن نفسه كما يروى — صاحب الأغانى — فيقول : « كنت أنا وأبو نواس تربين نشأنا فى مكان واحد وتأدبنا بالبصرة وكنا نحضر مجالس الأدباء متصاحبين ثم

خرج قبلى عن البصرة وأقام مدة واتصل بى ما آل إليه أمره وبلغنى إيثار السلطان وخاصته له فخرجت عن البصرة إلى بغداد ولقيت الناس ومدحتهم وأخذت جوائزهم وعددت فى الشعراء وهذا كله فى أيام الرشيد إلا أنى لم أصل إليه واتصلت بابنه صالح فكنت فى خدمته فغُنّى يوماً بهذا الصوت :

أأن زُمّ أجمال وفارق جيرة وصاح غراب البين أنت حزين؟

فقال لى صالح : قل أنت فى هذا المعنى شيئاً فقلت :

أأن دب حساد ومل حبيب وأورق عود الهجر أنت جنيب(١)

ليبلغ بنا هجر الحبيب مرامه هل الحب إلا عبرة ونحيب؟

كأنك لم تسمع بفرقة ألفــة وغيبة وصل لا تراه يؤوب

فأمر أن يغنى فيه . واتصلت بمحمد ابن زبيدة فى أيام أبيه وخدمته ثم اتصلت خدمتى له فى أيام خلافته » .

ثم لما قتل الأمين أكثر من رثائه والبكاء عليه وبالغ فى ذلك مما جعل المأمون يسرها له فى نفسه ويحرمه من عطفه وما زال يوسط لديه الكبراء حتى رضى عنه وإن كان ذلك على بعد الدار ومنع الاتصال . واتصلت أسبابه بالخليفة المعتصم وبنيه فكان ينادمهم ويجالسهم أمراء وخلفاء وتوالت عليه المنح والعطايا وتردد شعره فى مجالسهم وكان آخر شعر

---

(١) الجنيب : من يشكو جنبه .

قاله فى خلافة المنتصر المتوفى سنة ٢٤٨ ﻫ وكان المنتصر خرج ظهراً والناس وراءه :

ألا ليت شعرى أبـــدر بدا نهـــاراً أم الملك المنتصر
إمـــام تضمن أثوابـــه على سرجـــه قمراً من بشر
حمى الله دولـــة سلطانه بجنـــد القضاء وجند القدر
فلا زال ما بقيت مـــدةٌ يروح بها الدهرُ أو يبتكر

ثم توقفت ملكته الشعرية لبلوغه من الكبر عتيًّا فلم يذكر له شىء فى خلافة المستعين ولعل أيامه الباقية بعد المنتصر كانت ضعفاً وهزالا حتى توفى سنة ٢٥٠ فى خلافة المستعين . ولقد نبغ فى أيام حظوته الثانية بعد خلافة المأمون شعراء أكثروا من مدائح الخلفاء والعظماء كأبى تمام (١٩٠ — ٢٣٢) وعلى ابن الجهم المتوفى سنة ٢٤٩ ﻫ والبحترى (٢٠٥ — ٢٨٤). ويبدو أن الحسين أغناه سيب الخلفاء وولاة العهد والأمراء عن الاستجداء ومدح من هم أقل من ذلك شأناً بل لعل ملازمته الخلفاء والأمراء صرفته عن أن ينظر إلى من هم دونهم مقاماً . وقد تكون عزة نفسه هى التى جعلته يشعر أنه فى مستوى أولئك الممدوحين وليس هناك ما يدعوه إلى أن يطامن من كبريائه ما دام الله قد وهبه الحظوة عند أمراء المؤمنين . قال الحسين بن الضحاك : « ضربنى الرشيد فى خلافته

لصحبتى ولده ثم ضربنى الأمين لممايلة ابنه عبد الله ثم ضربنى المأمون لميلى إلى محمد ثم ضربنى المعتصم لمودة كانت بينى وبين العباس بن المأمون ثم ضربنى الواثق لشىء بلغه من ذهابى إلى المتوكل وكل ذلك يجرى مجرى الولع بى والتحذير لى ثم أحضرنى المتوكل وأمر شفيعاً بالولع بى فتغاضب المتوكل على فقلت له : يا أمير المؤمنين إن كنت تريد أن تضربنى كما ضربنى أباؤك فاعلم أن آخر ضرب ضربته بسببك. فضحك وقال : بل أحسن إليك يا حسين وأصونك وأكرمك » .

سنه

أما وفاته فهو كغيره من المشهورين السابقين عرف تاريخها فقد كانت وفاته فى خلافة المستعين سنة ٢٥٠ ﻫ وقيل فى سنة ٢٥١ ولكنه كغيره أيضاً من السابقين لم تعرف سنته التى ولد فيها . وبين ما ذكره الذاكرون وما يستنتج من رواية الراوين فرق بيّن وخلاف كبير فالكامل لابن الأثير وعقد الجمان وتاريخ بغداد ومن نقل عنه تذكر أنه ولد سنة ١٦٢ ﻫ والأغانى وبعض المصادر الأخرى تذكر أنه عمّر عمراً طويلا حتى قارب المائة السنة ومعنى هذا أنه ولد بين سنتى ١٥٠ و ١٥٥ ويؤيد القول الأخير ما رواه أبو الفرج من

أن الحسين قال : « لا أذكر السنة التى ولدت فيها ولكنى أذكر موت شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ » ومعنى هذا أنه — ليذكر موت شعبة — ولد بين سنتى ١٥٠ و ١٥٥ على أقل تقدير . ويؤيده أيضاً ما سبق أن ذكرناه من أنه كان وأبو نواس تربين ؛ مع العلم أن أبا نواس تختلف الروايات فى عام ولادته : ١٣٦ و ١٣٧ و ١٤١ و ١٤٥ فإذا أخذنا بآخر هذه الأقوال علمنا أن الحسين عاش مائة عام وخمسة وإذا أخذنا بأولها علمنا أن الحسين عاش مائة عام وخمسة عشر. ولعل خير ما نستخلصه أنه ولد بين سنتى ١٥٠ و ١٥٥ وأنه حضر مع أبى نواس مجالس الأدباء مع اختلاف بينهما فى السن وإن يكن غير كبير ونأخذ هذا من شعره فهو تسجيل منه وتاريخ فقد أمره المتوكل بأن ينادمه ويلازمه فلم يطق ذلك لكبر سنه فقال للمتوكل بعض من حضر عنده : هو يطيق الذهاب إلى القرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك ، فبلغه ذلك فدفع إلى أحمد بن حمدون بالأبيات الآتية وسأله إيصالها فأوصلها إلى المتوكل وشيعها بكلام يعذره وقال : لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها فقال المتوكل: صدقت وأمر له بعشرين ألف درهم:

أما فى ثمانـين وفيتهـا عذير وإن أنا لم أعتـذر

فكيف وقد جزتها صاعداً — مع الصاعدين بتسع أخر
وقد رفع الله أقلامه — عن ابن ثمانين دون البشر[1]
سوى من أصرّ على فتنة — وألحد فى دينه أو كفر
وإنى لمن أسراء الإله — فى الأرض نصب صروف القدر
فإن يقض لى عملا صالحاً — أثابَ وإن يقض شرًّا غفر
فلا تلح فى كبر هدنى — فلا ذنب لى أن بلغت الكبر
هو الشيب حل بعقب الشباب — فأعقبنى خوراً من أشر
وقد بسط الله لى عذره — فمن ذا يلوم إذا ما عذر
وإنى لفى كنف مغدق — وعز بنصر أبى المنتصر
يبارى الرياح بفضل السما — ح حتى تبلد أو تنحسر
له أكد الوحى ميراثه — ومن ذا يخالف وحى السور
وما لحسود وأشياعه — ومن كذب الحق إلا الحجر

فلو كانت ولادته سنة ١٦٢ لكان عمره عند مقتل المتوكل (٢٠٦ — ٢٤٧) خمسة وثمانين عاماً وهذا لا يتفق مع اعتذاره فى شعره بأن عمره تسعة وثمانون . ولا يقال إن ضرورة الشعر ألجأته إلى اختيار لفظة تسع فالوزن يستقيم إذا قال : بخمس

---

(١) قال ياقوت فى معجم الأدباء : الأصل فى قول الحسين هو ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا بلغ العبد ثمانين سنة فإنه أسير الله فى الأرض تكتب له الحسنات وتمحى عنه السيئات »

بست . بسبع فالذى يفهم من شعره السابق أنه ولد على الأقل فى سنة ١٥٦ إذا افترضنا قوله فى السنة التى قتل فيها المتوكل ٢٤٧ . وفى شعر آخر أراد أن يعفيه المتوكل من خدمته حينما كانت سن المتوكل ثلاثين عاماً ، حوالى سنة ٢٣٦ ، فكان عذره أن عمره ستة وثمانون عاماً :

أسلفت أسلافك فيما مضى من خدمتى إحدى وستينا
كنت ابن عشرين وخمس فقد وفيت بضعاً وثمانينا
إنى لمعروف بضعف القوى وإن تجلدت أحايينا
وإن تحملت على كبرتى خدمة أبناء الثلاثينا

فالذى يؤخذ من هذا الشعر أن الحسين ولد على الأكثر حوالى سنة ١٥٠ هـ .

مجموع شعره

على الرغم من شهرة الحسين وعلو منزلته وإبداعه فى شعره لا يوجد له ديوان مجموع وقد يكون منزوياً فى بعض المكتبات الخاصة شأنه فى ذلك شأن بعض المشهورين الذين اختفت دواوينهم كصالح بن عبد القدوس وسلم الخاسر وعلى بن جبلة ودعبل الخزاعى .. . إلخ من سبقوه أو عاصروه على أن صاحب الفهرست يذكر أن شعر الحسين بن الضحاك كان فى مائة

وخمسين ورقة وهذا مما يقنعنا بأن شعره جمع فى ديوان وهناك كثير من الكتب تشير إلى قصائد له على أنها موجودة بين الناس ولا تذكرها اعتماداً على شهرتها أو تذكر بعضها أو مطلعها وقد نعثر عليها وقد لا نظفر بها يضاف إلى ذلك أن بعض شعره قد نسب إلى غيره أو حفظ دون أن ينسب إلى إنسان بخصوصه . يذكر أبو الفرج أن أبا نواس كان يأخذ معانى الحسين بن الضحاك فى الخمر فيغير عليها وإذا شاع له شعر نادر فى هذا المعنى نسبه الناس إلى أبى نواس وله معان فى صفتها أبدع فيها وسبق إليها فاستعارها أبو نواس » . وفى ديوان أبى نواس رواية الصولى : « فليس يرون شعراً لأحد فى المذكر إلا نحلوه أبا نواس وكذا يفعلون فى الخمر » وفى أخبار أبى نواس لابن منظور : « قال أبو عبد الله أحمد بن صالح ابن أبى نصر : كان أبو بحر عبد الرحمن بن أبى الهداهد شاعراً مجيداً وكان لا يكاد يقول شيئاً إلا انسب لأبى نواس وكذلك الحسين بن الضحاك وقد غلب على كثير من شعرهما » وابن المعتز فى طبقات الشعراء يذكر شعراً فى المجون لوالبة ابن الحباب ثم يعقب عليه بقوله : « وهذا الشعر مما ينحله العامة أبا نواس وذلك غلط لأن العامة الحمقى قد لهجت بأن تنسب كل شعر فى المجون إلى أبى نواس » وفى موضع

آخر يذكر شعراً للحسين ويعقب عليه بقوله : « وقد نسبت العوام هذا إلى أبى نواس وذلك منحول إنما هو للحسين بن الضحاك » .

وإذا علمنا أن أكثر شعر الحسين هو فى الخمر والمجون أيقنا أن بعضه قد نحله الناس لأبى نواس بل إن ابن المعتز — مع سابق قوله — نسب لأبى نواس شعراً هو للحسين الخليع وذلك فى كتابه فصول التماثيل ، ونسب الثعالبى — فى كتابه منتخبات الكتابة — لسعيد بن حميد شعراً هو للحسين بن الضحاك . . . إلخ .

وإذا قارنا بين ما ذكره صاحب الفهرست من أن مجموع شعر الحسين مائة وخمسون ورقة أى من ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ بيت من الشعر وبين هذا العمر الطويل الذى عاشه نجده مقلا . وفى مجموع أشعاره التى عثرت عليها فى حوالى سبعين مصدراً بين مطبوع ومخطوط نجد له كثيراً من المقطعات الصغيرة التى لا تبلغ أن تكون قصائد ولعل هذا وذاك يرجع إلى أنه لم يكن مكثراً من المديح كما لم يكن وقاعاً فى أعراض الناس ولعله يرجع أيضاً إلى أنه كان شاعر اللهو والمجون والغناء الخاصة بالخلفاء والأمراء ولعله فوق هذا وذاك قد انقطع عن الشعر أيام خلافة المأمون وهى فترة طويلة درات عشرين

عاماً فلا لهو فى مجالس ولامجون فى مجتمعات وقد تكون خشيته من المأمون جعلته يتجنب مواطن اللهو والخلاعة حتى لا يأخذه المأمون بذلك وهو يعلم أنه عليه غاضب وله مقص ومجانب ، فلما عادت له الأيام بعد وفاة المأمون كان عرامه قد هدأ وتدفقه قد تقاصر فأمسى شعره نتفاً ومقتطفات فى مجالس الخلفاء الخاصة التى لا تحتاج إلى تطويل . وهناك كتب كانت مظنة وجود شعر للحسين ولكنها خلت منه أو خلت من نسبة شعر إليه وهى حماسة أبى تمام وحماسته الصغرى وحماسة البحترى والبيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد والشعر والشعراء لابن قتيبة . فأما أبو تمام فقد مات قبل الحسين وأما الجاحظ فقد مات بعده بخمسة أعوام والباقون عاصروه وعاشوا بعده مدداً تتراوح بين ٢٧ و ٥٠ عاماً على أنهم جميعاً كانوا يختارون من شعر السابقين ويحجمون عن تدوين شعر المحدثين فضلا عن المعاصرين . ولم أجد فى شعر الحسين الذى عثرت عليه فى جميع المصادر ذكراً للبرامكة بخير أو شر أو ذكراً للخليفة هرون الرشيد وهذا ما يدعونا إلى أن نقرر أن قدوم الحسين إلى بغداد كان فى أواخر أيام الرشيد وهذا ما يجعلنا أيضاً نعجب من شاعرية الحسين التى لم تلمع حتى سن الأربعين تقريباً وتحلق مع أمثاله من المجيدين

الذين سبقوه إلى هرون كسلم الخاسر المتوفى سنة ١٨٦ والعباس ابن الأحنف المتوفى سنة ١٩٣ وأبى نواس المتوفى سنة ١٩٥ وأشجع السلمى المتوفى سنة ٢٠٠ ومسلم بن الوليد المتوفى سنة ٢٠٠ وأبى العتاهية المتوفى سنة ٢١١ . وقد يكون اللهو والخلاعة والخمر والمجون شغله عن المدح أو كانت — كما يرى معالى الدكتور طه حسين باشا — سبباً فى انصراف هرون عنه وحرمانه من غشيان مجلسه لما كان يتحلى به الرشيد من الوقار والتورع . وما نحسب أن شاعراً ذا خطر عاصر البرامكة أو هرون ولم يجر على لسانه شيء من ذكرهم مدحاً أو هجاء أو رثاء وقد يكون فيما لم نعثر عليه من شعر الحسين شيء من ذلك الذى يتناول الناس ذماً وثناء جرى فى البرامكة وهرون .

تقدير الحسين بن الضحاك

التقى أبو نواس وحسين بن الضحاك فقال أبو نواس أنت أشعر أهل زمانك فى الغزل قال : وفى أى ذلك ؟ فقال : ألا تعلم يا حسين ؟ قال : لا . قال : فى قولك :

وابأبى مفحم لعــزته قلت له إذ خلــوت مكتتما
تحب بالله من يخصك بالو د فمــا قال لا ولا نعما
ثم تولى بمقلــتى خجــل أراد رجع الجواب فاحتشما

فكنت كالمبتغى بحيلته برءاً من السقم فابتدا سقما
ومفحم أو مقحم غلام كان لابن شغوف .

ويروى ابن المعتز فى طبقاته وأبو الفرج فى أغانيه أن على ابن محمد النوفلى قال : قال لى محمد بن عباد : قال لى المأمون وقد قدمت من البصرة : كيف ظريف شعرائكم وواحد مصركم ؟ قلت : ما أعرفه . قال : ذاك الحسين بن الضحاك أشعر شعرائكم وأظرف ظرفائكم أليس هو الذى يقول :

أجرنى فإنى قد ظمئت إلى الوعد متى تنجز الوعد المؤكد بالعهد
أعيذك من صد الملوك وقد ترى تقطع أنفاسى عليك من الوجد
فما لى شفيع عند حسنك غيره ولا سبب إلا التمسك بالود
أيبخل فرد الحسن فرد صفاته علىّ وقد أفردته بهوى فرد
رأى الله عبد الله خير عباده فملكه والله أعلم بالعبد
ألا إنما المأمون للناس عصمة مميزة بين الضلالة والرشد

قال : ثم قال لى المأمون : ما قال فىّ أحد من شعراء زماننا بيتاً أبلغ من بيته :

رأى الله عبد الله خير عباده فملكه والله أعلم بالعبد

فاكتب إليه فاستقدمه وكان حسين عليلا وكان يخاف بوادر المأمون لما فرط منه فقلت للمأمون : إنه عليل يا أمير المؤمنين علته تمنعه من الحركة والسفر . قال : فخذ كتاباً

إلى عامل خراجكم بالبصرة حتى يعطيه ثلاثين ألف درهم فأخذت الكتاب بذلك وأنفذته إليه فقبض المال .

وفى شرح المقامات والأغانى : قال على ابن الجهم دخلت يوماً على المتوكل وهو جالس فى صحن « خلده » وفى يده غصن آس وهو يتمثل بهذا الشعر :

بالشط لى سكن أفديه من سكن
أهدى من الآس لى غصنين فى غصن
فقلت إذ نظما إلفين والتبسا سقياً ورعياً لفأل منكما حسن
فالآس لا شك آس من تشوقنا شاف وآس لنا يبقى على الزمن
أبشرتمانى بأسباب ستجمعنا إن شاء ربى ومهما يقضه يكن

فلما فرغ من إنشادها قال لى — وكدت أنشق حسداً — : لمن هذا الشعر يا على ؟ فقلت : للحسين بن الضحاك يا سيدى فقال لى : هو عندى أشعر أهل زماننا وأملحهم مذهباً وأظرفهم نمطاً . فقلت وقد زاد غيظى : فى الغزل يا مولاى . قال : وفى غيره وإن رغم أنفك ومت حسداً .

وفى الأغانى أن أبا العباس محمد بن يزيد الأزدى قال : حسين بن الضحاك أشعر المحدثين حيث يقول :

أى ديباجة حسن هيجت لوعة حزنى
إذ رمانى القمر الزا هر عن فترة جفن

بأبى شمس نهار برزت فى يوم دجن
قربتنى بالمنى حتى إذا ما أخلفتنى
تركتنى بين ميعاد وخلف وتجنى
ما أرانى لى من الصبوة إلا حسن ظنى
إنما دامت على الغدر لما تعرف منى
أستعيذ الله من إعراض من أعرض عنى

وفى الأغانى أن أبا العباس ثعلب أنشد للحسين بن الضحاك :

لا وحبيك لا أصافح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا ح وإن كان موجعا
كبدى فى هواك أسقم من أن تقطعا
لم تدع سورة الضنى فى للسقم موضعاً

ثم قال ثعلب : ما بقى من يحسن أن يقول مثل هذا .

وقد رويت هذه الأبيات فى مصارع العشاق منسوبة لأعرابى وفى زهر الآداب منسوبة إلى محمد بن يزيد الأموى .

وقال ابن الرومى الشاعر : حسين بن الضحاك أغزل الناس وأظرفهم . فقيل له : حين يقول ماذا ؟ فقال حين يقول :

يا مستعير سوالف الخشف اسمع لحلفة صادق الحلف
إن لم أصح ليلى : وياحربى من وجنتيك وفترة الطرف

فجحدت ربى فضل نعمته   وعبدته أبداً على حرف

وسُمع الرياشى ينشد هذين البيتين ويستحسنهما جداً ويستظرفهما وهما :

إذا ما الماء أمكننى   وصفو سلافة العنب
صببت الفضة البيضاء   فوق قراضة الذهب

فقيل له : من يقولها يا أبا الفضل : قال : أرق الناس طبعاً وأكثرهم ملحاً وأكملهم ظرفاً حسين بن الضحاك .

ويكفى أن ابن المعتز قال عنه فى طبقات الشعراء : « جيد المدح جيد الغزل جيد الهجو كثير المجون صاحب جد وهزل وهو عندهم فى بحار أبى نواس بل هو أنقى شعراً وأقل تخليطاً منه » ، وأن أبا الفرج قال عنه فى أغانيه : « شاعر أديب ظريف مطبوع حسن التصرف فى الشعر حلو المذهب لشعره قبول ورونق صاف » .

ولحضرة صاحب المعالى الدكتور طه حسين باشا فصل ممتع فى دراسة الحسين بن الضحاك دوّنه فى كتابه حديث الأربعاء أقتطف منه ما يلى :

« شاعر ظريف شديد الظرف ربما انقطع نظيره فى شعراء العصر العباسى كله وهو مع ظرفه وإسرافه فى المجون قليل الفحش فى اللفظ غير متهالك على القول الآثم والألفاظ

المنكرة . . . . وهو على ظرفه ورقة حاشيته وحرصه على نقاء اللفظ وطهره شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . . .

كان أبو نواس كالحسين ماجناً شارباً وصافاً للخمر محبا للغلمان ولكنه كان من جهة مستهتراً متهتكاً يتمدح بالاستهتار والتهتك متسفلا فى شعره لا يتكلف الإجادة اللفظية والمعنوية فى كل وقت . كان يتكلف الإجادة إذا تحدث إلى الخلفاء والأمراء وأشراف الناس ، وكان يرسل نفسه على سجيتها إذا تحدث إلى الشعراء والأدباء وأوساط الناس ولكنه كان يتحدث إلى الدهماء وإلى طبقات من الرقيق وغلمان الحانات والأديرة فكان يتبسط إذا تحدث إلى هؤلاء وكان كثيراً ما يقول الشعر وهو سكران فلم يكن يستطيع الحرص على الإجادة اللفظية ثم كان أبو نواس ساخراً شديد السخر فكان يتعمد الإساءة إلى أهل اللغة وأصحاب النحو فيحرف عليهم قواعدهم ويسخر من أصولهم وهو مع ذلك لا يتجاوز اللغة ولا وجهة الصواب فيها . أما الحسين فكان طول حياته متصلا بالأمراء والخلفاء والوزراء والكتاب مقصوراً عليهم لا يكاد ينظم الشعر إلا لهم أو بمحضر منهم فكان بمعزل عما كان يضطر إليه أبو نواس من التحدث إلى العامة ودهماء الناس وسفلة الرقيق وكان الحسين بحكم منزلته من القصور مضطرا إلى أن يصطنع

هذه اللغة المختارة النقية التى تصلح للأرستقراطية فقلّ الفحش جدًّا فى شعره وغلبت المتانة والرصانة على ألفاظه وأساليبه وغلبت الجودة معانيه ثم لم يكن الحسين يتخذ السخرية مذهباً ولم يكن يعنيه أن يغيظ أهل الدين ورجال الصلاح ولم يكن يعنيه أن يغيظ أئمة اللغة وأصحاب النحو فكان فى شعره هدوء واطمئنان خلا منهما شعر أبى نواس ولم يكن أقل من أبى نواس صدقاً ولا استرسالا مع الطبيعة والسجية لذلك لا نجد فى شعره هذا الاحتشام المتكلف الذى يصطنعه المنافقون من الفساق وإنما كان الرجل فاسقاً لا يجرد فسقه ولا يظهره للناس عارياً كأبى نواس كما أنه لم يكن يحليه ولا يزينه فيخلع عليه أثواب الورع والدين . كذلك كان الحسين وله إلى هذا كله ميزة ربما لم يعظم منها حظ أبى نواس وهى مفهومة جدًّا . كان يعاشر الأمراء والخلفاء وكان ينشئ لهم الشعر ليتغنى لهم فيه المغنون وقد أكثر من ذلك حتى أثر فى شعره وأصبح شعره كله موسيقيًّا وقل أن تجد للحسين شعراً لم يتغن فيه المغنون وقل أن تجد له شعراً لا يصلح للغناء لا لجودة لفظه ومعناه فحسب بل لهما ولهذا التنسيق الموسيقى الذى لا تكاد تجده عند غيره ومن هنا آثر أو كاد يؤثر دائماً القصار من بحور الشعر . ومن هنا اجتهد فى أن يضيف إلى هذه الأوزان

الشعرية العروضية أوزاناً أخرى موسيقية فانظر إلى هذا البيت فهو يمثل ما أريد تمثيلا صحيحاً :

قد غاب — لا آب — من يراقبنا   ونام — لا قام — سامر الخدم

فانظر إلى قوله : قد غاب لا آب ، وإلى قوله : نام لا قام ، تجد إلى جودة المعنى وظهور حرص الشاعر على لذته هذا النغم الموسيقى الذى زاوج بين غاب وآب وبين نام وقام. وهذا النحو من الموسيقى كثير فى شعر الحسين . وجملة القول فى شخصية هذا الشاعر أنه كان كأبى نواس ولكنه أنقى من أبى نواس لفظاً وأعف منه لساناً وأحرص منه على اختيار المتين من الكلام ولم يكن يعدل أبا نواس ، فى خفة الروح وحلاوة المجون ولم يكن يبلغ أبا نواس فى الاستهتار والتهتك . ولم يكن أقل من أبى نواس حرارة فى العاطفة وصدقاً فى اللهجة ولكنه كان يمتاز بشىء من الرجولة والوفاء لم يكن لأبى نواس منه حظ عظيم . . . . »

شعره وشخصيته

لا نريد أن نعرض لشعر الحسين من ناحية علم البلاغة ومدى انطباقها عليه فهذا النوع من الدراسة العلمية فيه إفساد للكلام البليغ وتمزيق للأوصال المتشابكة فى انسجام. فالأزهار جميلة بمنظرها وتضوع رائحتها فإذا وضعت تحت التحليل العلمى فقدت على الأقل ما يكسوها من منظر جميل . والكلام البليغ يكفى أن يشتمل على الألفاظ الرقيقة والتراكيب السليمة والمعانى البديعة مع الانسجام بين هذه الأجزاء وتلك الألوان . وفى الأذواق — وإن اختلفت — قدر مشترك فى الإحساس بالجمال أو أن فى الجمال الحق جاذبية قوية تمسك فى أسرها جميع الأذواق . وقد وضعوا مثلا مقاييس للجمال ومع ذلك فإنها إذا توافرت قد ينقصها شىء يقلل من قدرها . وقد لا تجتمع المقاييس ومع ذلك فإنها تستولى على الألباب بما يسرى فيها من روح الانسجام .

ومن الممكن أن أقول لك إن الخليع كان حسن التشبيهات وأورد لك أمثلة وأقول إنه كان لطيف الكناية وأسوق إليك أدلة أو أقول إنه كان يدخل على أسلوبه المحسنات اللفظية

وأذكر على ذلك شواهد . ولكنى لا أحب أن آتى بشىء من هذا وإنما أعرض لك شعره ومناسباته لتحس مقدار خفته على لسانك وتطريبه فى أذنك وتسلله إلى قلبك وستحكم بأنه شعر يستحق التقدير وشاعر يستحق الإعجاب فلندعه طاقات من الزهر بعيدة عن التحليل العلمى الجاف .

وإذا لم أحلل شعره فإنى أرسم لك صورة منه عنه منتزعة من واقع حياته . فهو شخصية لم ينلها من السوء ما نال أبا نواس على يد والبة بن الحباب فلم يتحدث الرواة عنه بما كان يلصق بأبى نواس بل بما كان يذكره أبو نواس عن نفسه فى غير حياء وإذا كان قد نشأ أبو نواس وشاعرنا تربين فى البصرة يحضران مجالس العلم فإن والبة اتصل بأبى نواس فى الكوفة أو الأهواز وأبو نواس لطمته الغربة صغيراً . لهذا نعجب حينما نعلم أن ابن المعتز فى ترجمته للحسين يقحم قوله : « وهو غلام أستاذه والبة بن الحباب » فلعل ابن المعتز حدّثَ بأنهما نشآ معاً فحسب أن الخليع تتلمذ على والبة كما تتلمذ عليه أبو نواس وعلى كل حال فإنه لم يذكر ذلك أحد غير ابن المعتز ولعلها مقحمة على كتابه من المعلقين . والحسين شخصية محبوبة يدلنا على هذا امتداد اتصاله بالخلفاء والأمراء زمناً يقرب من ستين عاماً ويحرص كل واحد منهم

على أن يجعله نديمه . وهو بعيد عن التلون والرياء صادق الوفاء وقد كشف عن هذا الجانب الممدوح من خلقه إخلاصه للأمين وما كاد يجره عليه وفاؤه من البلاء ، وهو مع ذلك مرح متسامح يضربه الخلفاء على سبيل الولع به فيتحدث عن ذلك ولا يضيق به . وإن جسمه لمتين التركيب فقد قال له الأمين أنت أضلع القوم أى أشدهم وأقواهم أضلاعاً وهو صبور قادر على احتمال الحدود المرسومة فى القصور والخضوع لها لا ينشد الحرية المطلقة بعكس أبى نواس الذى كان يهرب من الخلفاء ويقول : « إنما يصبر على مجالسة هؤلاء الفحول المنقطعون الذين لا ينبعثون ولا ينطقون إلا بأمرهم والله لكأنى على النار إذا دخلت عليهم حتى أنصرف إلى إخوانى ومن أشاربه لأنى إذا كنت عندهم فلا أملك من أمرى شيئاً » وكان فى الحسين نوع من الترفع عن مديح الناس لا يلجأ إلى ذلك إلا إذا اضطرته ظروف الحياة وما دام العيش الرغد مكفولا والمكان الطيب ميسراً فلا أرب له فى جمع الأموال .

يسر وأترابه وشاعريه الحسين

نشأ الخليع فى البصرة موطن العلم والنحو واللغة حيث الجد والتوقر والبعد عن اللهو والمجون . وكانت تلك هى المدرسة الأولى التى كوّن الحسين فيها نفسه ولم يكن من بسطة الرزق ورخاء العيش بحيث يمتع نفسه ويرفه عنها وليس هناك من الشعر إلا مدح الزعماء الذين تسيطر عليهم مظاهر البداوة وليس من مطلب إلا أمثال الجبة التى يطلبها من مويس بن عمران ، فكمنت فى أعماق الحسين رغبات الشباب لا تجد لها انطلاقاً ولا متنفساً فلما بلغه ما ظفر به أبو نواس فى بغداد ارتحل إليها لعل الحظ يبتسم له والحياة تتفتح أمامه ولم يكن له من ألوان الشعر إلا المدح وطلب الجوائز حتى دخل بلاط صالح بن هرون الرشيد فدخل بذلك فى دنيا الجمال والخيال والفتنة والسحر وقفزت شياطين شعره تراقص مبهورة أمام ما تحويه هذه القصور من ألوان النعيم وما تجمع فيها من مفاتن تتعطش إليها فورات الشباب .

أطيب الغذاء بين أبدع المناظر وأمتع الشراب يطوف به سقاة كأنهم ولدان مخلدون وألوان من الموسيقى وأنواع من الغناء يهز أوتار القلوب ويطلق حبيس الرغبات . هذا صالح

ابن الرشيد شباب وجمال وأخوه أبو عيسى وغلمانه إشراق ووضاءة وبين ذلك كله تشجيع على الوصف ودفع إلى الغزل وتسامح عند العربدة وتغاض عن النظرات المنهومة، وفى هذا الجو المشرق المتضوع تفتحت مفاتن يسر غلام أبي عيسى زهرة ناضرة جذبت إليها الأنظار وحامت حولها الفراشات فوقع فى هواه صالح والخليع .

وكانت للحسين حظوة فى هذه المجتمعات لفتت إليه الأنظار وله شعر يتغنى به المغنون وعبث فى مجالس الشراب وظرف مقبول ، وأخذت نظراته تزداد فضولا على وجه يسر ، ويسر يلحظ ما فى هذه النظرات من معان فيقابلها بالحذر والحيطة وإن كان يجد من نفسه إعجاباً بالحسين ومجالسه .

كان الحسين يوماً فى جماعة وقد جاءه يسر فجلس عنده وأخذوا يتحدثون ملياً ثم غازله الحسين فقال له يسر : إياك والتعرض لى واربح نفسك فقال الحسين :

أيها النفاث فى العقـــد ... أنا مطوى على الكمد
إنما زخرفت لى خدعاً ... قدحت فى الروح والجسد
هات ياخـــداع واحدة ... من كثير قلته وقدى[1]
ليت شعرى بعد حلفك لى ... بوفاء العهد بعـــد غـــد

(١) قدى : حسبي أى كفانى .

ما الـــذى بالله صيّره   بعد قرب فى مدى الأبد
ما لأنس كان مبتـــذلا   منك لى بالأمس لم يعـــد
إيه قل لى غـــير محتشم   هل دهانى فيك من أحد
حبـــذا والكاس دائرة   لهـــونا والصيد بالطرد
وحديث فى القلوب له   أخذٌ يصدعن فى الكبد
يوم تعطينى وتأخـــذها   دون ندمانى يداً بيـــد
فإذا ألويت هيجنى   تلع من ظبيـــة البـــلد
وإذا أصغيت ذكرنى   نشـــر كافور على بـــرد
ذاك يوم كان حاسدنا   فيه معذوراً على الحسد

وفى اجتماع للحسين مع يسر فى منزل صالح جعل الحسين يشكو إليه ما به فلا يسمع يسر له ويكذبه ثم سكن نفاره وضحك إليه وتحدثا ساعة فأنشد حسين قوله فى ذلك :

سائل بطيفك عن ليلى وعن سهرى   وعن تتابع أنفاسى وعن فكرى
لم يخل قلبى من ذكراك إذ نظرت   عينى إليك على صحوى ولا سكرى
سقياليوم سرورى إذ تنازعنى   صفو المدامة بين الأنس والخفر
وفضل كأسك يأتينى فأشربه   جهراً وتشرب كأسى غير مستتر
وكيف أشمله لثمى وألزمـــه   نحرى وترفعه كفى إلى بصرى
فليت مدّةَ يومى إذ مضى سلفاً   كانت ومدّةَ أيامى على قدر
حتى إذا ما انطوت عنا بشاشته   صرنا جميعاً كذا جارين فى الحفر

وهكذا وصل الحسين إلى أن يأخذ له مكاناً فى قلب يسر إلا أن العاطفة جعلته يترنم بالشعر فيه وتلقفه المغنون، فما يغنيهم إلا ما يطرب ولا يغنى الأمراء والكبراء إلا أن يسمعوا ويستمتعوا، فلامه يسر على أن قال فيه شعراً غنى فيه عمرو بن بانة أحد الحذاق المشهورين إذ ذاك فقال الحسين — وقد غنى فيه عمرو بن بانة أيضاً — :

فدّيت من قال لى على خفره   وغض من جفنه على حوره
سمّع بى شعرك المليح فما   ينفك شــاد به على وتره
حسبك بعض الذى أذعت ولا   حسب لصب لم يقض من وطره
فقلت يا مستعير سالفة الخشـ   ـف وحسن الفتور من نظره
لا تنكرن الحنين من طرب   عاود فيك الصبا على كبره

وما زال الحسين فى غرامه وإعجابه والتحدث بذلك فى شعره، وما زال يسر فى مواصلة وإقبال ومنع ودلال حتى كان يوم عابثه الحسين على سكر فأخذ يسر قنينة فضرب بها رأس الحسين فشجه فجفا يسراً واطرحه وأبغضه ولم يعرض له بعدها فرآه يسر بعد ذلك فى مجلس مولاه فعبث بالحسين وغازله وهو معرض عنه فلما أكثر ذلك قال الحسين :

هويتكم جهدى وزدت على الجهد   ولم أر فيكم من يقيم على العهد
فإن أمس فيكم زاهداً بعد رغبة   فبعد اختيار كان فى وصلكم زهدى
لعمرى لقد أغضيت فيكم على التى
تجرعنى المكروه من غصص الحقد

تأبيتكم بقيا الصديق لتقصدوا وتأبون إلا أن تجوروا عن القصد
تعزوا بيأس عن هواى فإننى
إذا انصرفت نفسى فهيهات من ردى
أبى القلب إلا نبوة عن جميعكم كنبوتكم عنى فى السحق والبعد
أرى الغدر ضداً للوفاء وإننى لأعلم أن الضد ينبو عن الضد

وما دام الأمر إعجاباً بالجمال وتغنياً بالمفاتن وعشقاً للحسن والوضاءة فإن فى كل مجلس مندوحة وفى كل مكان فتنة آخذة وزهرات متفتحة ناضرة فالحسين يجد غلاماً خادماً عند أبى كامل المهندس فيستحسنه ويعجبه فيقول له بعض أصحابه :

أتحبه ؟ قال : نعم والله . قال : فأعلمه . قال : هو أعلم بحبى له منى به ثم قال :

عالمٌ بحبّيه مطرق من التيه
يوسف الجمال وفر عونُ فى تعديه
لا وحقّ ما أنا من عطفه أرجيه
ما الحياة نافعة لى على تأبّيه
النعيم يشغله والجمال يطغيه
فهو غير مكترث للذى ألاقيه
تائهٌ تزهده فىّ رغبتى فيه

الخليع والمخلوع

سألونا أن كيف نحن فقلنا   من هوى نجمه فكيف يكون
نحن قوم أصابنا حدث الدهـــــر   فظلنا لريبه نســتكين
نتمنى من الأمـــين إياباً   لهف نفسى وأين منى الأمين

لا نجد عاطفة صادقة ولوعة مشبوبة فى رثاء شاعر لخليفة كما نجدها فى مراثى الحسين بن الضحاك الخليع للخليفة محمد الأمين المخلوع يرسلها زفرات حارة وأنات مكلومة لا يحاول كتمانها أو تخفيفها ولا يكتفى فى ذكرها على المصاب بل يقرنها بالنقمة والسخط على من أصاب مع إدبار الدنيا عمن لهج به اللسان وتفطر لمصرعه الفؤاد هذا إلى فقدان الأمل فى عودة الصولة ورجوع الدولة، فى حين أن المأمون قد دان له الأمر وأتته الخلافة منقادة وقد تكون شدة وقع المصاب وزوال النعيم وبعد المأمون عن عاصمة الخلافة هى التى أفقدت الحسين الحذر وشغلته عن المداراة والكتمان . ومن عادة أكثر الشعراء أن يعزّوا فى الراحل إن كان حبيباً إلى المستخلف ويهنئوا الخليفة بالإقبال والتأييد فكان الحسين غريباً فى أمر وفائه وعجيباً شأن إخلاصه ولقد اشتهر ذلك عنه حتى تحدث الرواة بأن

لحسين بن الضحاك فى محمد الأمين مراثى كثيرة جياداً وكان كثير التعلق به والموالاة له لكثرة إفضاله عليه وميله إليه وتقديمه إياه وبلغ من جزعه عليه أنه خولط فكان ينكر قتله لما بلغه ويدفعه ويقول : إنه مستتر وإنه قد وقف على تفرق دعاته فى الأمصار يدعون إلى مراجعة أمره والوفاء ببيعته ضناً به وشفقة عليه .

وتحدث الرواة أن الحسين قد أسرف فى مراثى الأمين وذم المأمون فلهذا حجبه عنه ولم يسمع مديحه مدة فلما سعى له الساعون وقالوا له : أين فضل إحسان أمير المؤمنين وسعة حلمه وعادته فى العفو أمر بإحضاره وقال له : أخبرنى هل رأيت يوم قتل أخى هاشمية قتلت وهتكت ؟ قال : لا . قال : فما قولك :

ومما شجا قلبى ويسكب عبرتى	محارم من آل الرسول استحلت
ومهتوكة بالخلد[1] عنها سجوفها	كعاب كقرن الشمس حين تبدت
إذا خفرتها روعة من منازع	لها المرط عادت بالخشوع ورنت
وسرب ظباء من ذؤابة هاشم	هتفن بدعوى خير حى وميت
أردّ يداً منى إذا ما ذكرتــه	على كبد حرى وقلب مفتت
فلا بات ليل الشامتين بغبطة	ولا بلغت آمالهم ما تمنت

(١) الخلد : من قصور الخلفاء العباسيين .

فقال : يا أمير المؤمنين لوعة غلبتني وروعة فاجأتني ونعمة استلبتها بعد أن غمرتني وإحسان شكرته فأنطقني وسيد فقدته فأقلقني فإن عاقبت فبحقك وإن غفرت فبفضلك. فدمعت عين المأمون وقال : قد عفوت عنك وأمرت بإدرار رزقك عليك وعطائك ما فاتك متمماً وجعلت عقوبة ذنبك امتناعي من استخدامك . ويحق للمأمون أن يغضب عليه ويحرمه من رضاه والحظوة لديه ويسد دونه أبوابه فلقد أكثر من الدعاء على المأمون بالهلاك وتمنى أن يزول ملكه ويصبح طريداً مشرداً .

يا خير أسرته وإن زعموا … إني عليك لمثبت[1] أسف
الله يعلم أن لي كبداً … حرّى عليك ومقلة تكف
ولئن شجيت لما رزئت به … إني لأضمر فوق ما أصف
هلا بقيت لسد فاقتنا … أبداً وكان لغيرك التلف
قد كان فيك لمن مضى خلف … ولسوف يعوز بعدك الخلف
لا بات رهطك بعد هفوتهم … إني لرهطك بعدها شنف[2]
هتكوا لحرمتك التي هتكت … حرمَ الرسول ودونها السجف
... ... … ... ...

---

(١) المثبت يقال طعنه فأثبت فيه الرمح أي أنفذه فهو مثبت .

(٢) شنف فلاناً وشنف لفلان أبغضه فهو شنف .

تركوا حريم أبيهمو نفــــلا | والمحصنات صوارخ هتف
أبدت مخلخلها على دهش | أبكارهن ورنت النصف
سلبت معاجرهن واجتليت | ذات النقاب ونوزع الشنف
فكأنهن خــلال منتهب | درّ تكشف دونه الصـــدف
ملك تخون مـــلكه قــدر | فوهى وصرف الدهر مختلف
هيهات بعدك أن يدوم لنـــا | عز وأن يبقى لنا شرف

... ...

ولا يريد أن يتم شيء ما دام الأمين قد طواه الموت ويدعو أن يبدد الله شمل الملك وألا يهنأ المأمون بما ملك .

أعينى جودا وابكيا لى محمداً | ولا تذخرا دمعاً عليه وأسعدا
فلا تمّت الأشياء بعـــد محمد | ولا زال شمل الملك فيها مبددا
ولا فرح المأمون بالملك بعده | ولا زال فى الدنيا طريداً مشردا

إن وفاء الحسين للأمين دليل على معدنه الصافى ونفسيته العالية التى تقدر لأهل الفضل فضلهم وللمحسنين إحسانهم فالأمين هو الذى رفعه وقرّبه وكانت له عليه اليد الطولى ، وما أغدقه عليه وهو خليفة جعل أموره تجرى فى غير عسر أيام حرمانه فى عهد المأمون . ومن طريف ما يقصه الحسين ذلك الحديث الذى يصور مقدار حظوته وأنه موضع الأسرار التى تجرى بين « الحريم » قال الحسين : دعانى الأمين

يوماً فقال لى : يا حسين إن جليس الرجل عشيره وثقته وموضع سره وأمنه وإن جاريتى فلانة أحسن الناس وجهاً وغناء وهى منى بمحل نفسى وقد كدرت علىّ صفوها ونغصت علىّ النعمة فيها بعجبها بنفسها وتجنيها علىّ وإدلالها بما تعلم من حبى إياها وإنى محضرها ومحضر صاحبة لها ليست منها فى شىء لتغنى معها فإذا غنت وأومأت لك إليها — على أن أمرها أبين من أن يخفى عليك — فلا تستحسن الغناء ولا تشرب عليه ، وإذا غنت الأخرى فاشرب واطرب واستحسن واشقق ثيابك وعلىّ مكان كل ثوب مائة ثوب . فقلت السمع والطاعة فجلس فى حجرة الخلوة وأحضرنى وسقانى وخلع علىّ وغنت المحسنة وقد أخذ الشراب منى فما تمالكت أن استحسنت وطربت وشربت فأومأ إلىّ وقطب فى وجهى ثم غنت الأخرى فجعلت أتكلف ما أقوله وأفعله ثم غنت المحسنة ثانية فأتت بما لم أسمع مثله قط حسناً فما ملكت نفسى أن صحت وشربت وطربت وهو ينظر إلىّ ويعض شفتيه غيظاً وقد زال عقلى فما أفكر فيه حتى فعلت ذلك مراراً وكلما ازداد شربى ذهب عقلى وزدت مما يكره فغضب فأمضنى وأمر بجر رجلى من بين يديه وصرفى فجررت وصرفت فأمر بأن أحجب وجاءنى الناس يتوجعون لى ويسألوننى عن قصتى

فأقول لهم : حمل علىّ النبيذ فأسأت أدبى فقومنى أمير المؤمنين بصرفى وعاقبنى بمنعى من الوصول إليه . ومضى لما أنا فيه شهر ثم جاءتنى البشارة أنه قد رضى عنى وأمر بإحضارى فحضرت وأنا خائف فلما وصلت أعطانى الأمين يده فقبلتها وضحك وقام وقال لى : اتبعنى ودخل إلى تلك الحجرة بعينها ولم يحضر غيرى وغنت المحسنة التى نالنى من أجلها ما نالنى فسكت فقال لى : قل ما شئت ولا تخف فشربت واستحسنت ثم قال لى : يا حسين لقد خار الله لك بخلافى ، وجرى القدر بما تحب فيه . إن هذه الجارية عادت إلى الحال التى أريد منها ورضيت كل أفعالها فأذكرتنى بك وسألتنى الرضا عنك والاختصاص لك وقد فعلتُ ووصلتك بعشرة آلاف دينار ووصلتك هى بدون ذلك والله لو كنت فعلت ما قلت لك حتى تعود إلى مثل هذه الحال ثم تحقد عليك فتسألنى ألا تصل إلىّ لأجبتها . فدعوت له وشكرته وحمدت الله على توفيقه وزدت فى الاستحسان والسرور إلى أن سكرت وانصرفت وقد حمل معى المال فما كان يمضى أسبوع إلا وصلاتها وألطافها تصل إلى من الجوهر والثياب والمال بغير علم الأمين وما جالسته مجلساً بعد ذلك إلا سألته أن يصلنى فكل شيء

أنفقه بعده إلى هذه الغاية فمن فضل مالها وما ذخرت من صلاتها » .

لهذا لم يكن عجيباً على الحسين أن يقول : كنت عازماً على أن أرثى الأمين بلسانى كله وأشفى لوعتى فلقينى أبو العتاهية فقال لى : يا حسين أنا إليك مائل ولك محب وقد علمت مكانك من الأمين وإنه لحقيق بأن ترثيه إلا أنك قد أطلقت لسانك من التلهف عليه والتوجع له بما صار هجاء لغيره وثلباً وتحريضاً عليه وهذا المأمون منصب على العراق قد أقبل عليك فأبق على نفسك يا ويحك واكفف غرب لسانك واطو ما انتشر عنك وتلاف ما فرط منك فعلمت أنه قد نصحنى فجزيته الخير وقطعت القول فنجوت برأيه وما كدت أنجو » .

المأمون

رأينا أن الحسين بالغ فى رثاء الأمين كما بالغ فى السخط على المأمون وما كان يتمناه له من الهلاك أو التشريد فلم تطب نفس المأمون أن يجعله يغشى مجالسه وكان المأمون إلى جانب هذا رجل علم وجد لا يميل إلى اللهو كل الميل ولا يعقد له مجالس كما كان يعقدها إخوته ، فليست الرغبة فى أمثال الخليع بملحة ولا قوية . وبعد أن ثاب الحسين إلى رشده ووازن بين ما قال وبين قيمة الحياة جعل يرسل إلى المأمون من المديح ما قرأت بعضه ولكن المأمون لم يفتح له أبوابه مع إعجابه بما ينقل إليه ويقول : هذه بتلك .

وإنا لنجد فى مدح الحسين للمأمون على قلته تهالكاً منشؤه ضعف العاطفة وفتور الحرارة ولم يقم الحسين فى بغداد بل انحدر إلى البصرة فأقام بها فى انتظار أن يعفو المأمون عما كان منه وما قال . وكان أول من سعى إلى نفع الحسين هو صالح بن الرشيد فهو أخو المأمون من ناحية وهو صاحب المجالس الأولى مع الخليع ولعله يريد أن يكون الخليع فى بغداد قريباً منه حتى لا ينقطع لهوه أو ينتقص

سروره فدخل يوماً على المأمون ومعه بيتان للحسين بن الضحاك فقال : يا أمير المؤمنين أحب أن تسمع منى بيتين فقال : أنشدهما فأنشده :

حمدنا الله شكراً إذ حبانا   بنصرك يا أمير المؤمنينا
فأنت خليفة الرحمن حقًّا   جمعت سماحة وجمعت دينا

فقال : لمن هذان البيتان يا صالح؟ فقال : لعبدك يا أمير المؤمنين الحسين بن الضحاك . قال : قد أحسن . فقال : وله يا أمير المؤمنين أجود من هذا فقال : وما هو فأنشده قوله :

أيبخل فرد الحسن فرد صفاته   ... ...
رأى الله عبد الله خير عباده   فملكه والله أعلم بالعبد

فأطرق ساعة ثم قال : « ما تطيب نفسى له بخير بعد ما قال فى أخى محمد وقال . » . وضاقت الحال بالحسين فكان يذهب إلى بغداد لعله يجد طريقاً إلى رضا المأمون . ولكن ما بال هذا الشعر قد كسدت سوقه وأصبحت بغداد دار غربة واستكانة بعد أن كانت دار عز ورفعة فيقول :

كم لك لما احتمل القطين   من زفرة يتبعها الأنين
وعبرة تحدرها الشئون   إنى ببغداد لمستكين
حظ الغريب الشوق والشجون   يا لائمى لكل يوم هون

إليــك عنى إننى مفتــون ... الشــعر منى كاسد ودون
وحان من تحريكه تسكين ... قد ركبت أربابهــا الديون
بضاعة أكســدها المأمون ... إمام عــدل للتقى أمــين

ولولا بقية إفضال الأمين على الحسين لصارت حاله عبرة بعد أن قطع المأمون ما كان له من مال مرتب يتقاضاه من بيت المال . لهذا كان إلحاح الخليع مستمراً فى أن يُغادَ له ما كان ، فلجأ إلى المقربين من المأمون يرجوهم ويمدحهم ويستنهض هممهم لعلهم يصلحون له ما فسد ويفتحون الأبواب فلاذ بالحسن بن سهل — وهو أبو بوران التى تزوجها المأمون — وطمع أن يصلحه له فقال يمدحه :

أرى الآمال غــير معرجات ... على أحدسوى الحسن بن سهل
يبارى يومه غــدُه سماحاً ... كلا اليومين بان بكل فضل
أرى حسناً تقــدم مستبداً ... ببعــد من رياسته وقبــل
فإن حضرتك مشكلة بشك ... شفاك بحكمة وخطاب فصل
سليل مرازب برعوا حلوماً ... وراع صغيرهم بسداد كهل
ملوك إن جريت بهم أبروا ... وعــزوا أن توازنهم بعدلِ
ليهنك أن ما أرجأت رشد ... وما أمضيت من قول وفعل
وأنك مؤثر للحــق فــيما ... أراك الله من قــطع ووصل
وأنك للجميع حيــا ربيع ... يصوب على قرارة كل محل

فاستحسنها الحسن بن سهل ودعا بالحسين فقربه وآنسه ووصله وخلع عليه ووعده إصلاح المأمون له — فلم يمكنه ذلك لسوء رأى المأمون فيه ولما عاجل الحسن من العلة سنة ٢٠٣ هـ تقريباً. فلما أعيت الحسين بن الضحاك الحيلة فى رضا المأمون عنه رمى بأمره إلى عمرو بن مسعدة وكتب إليه :

أنت طودى من بين هذى الهضاب
وشهابى من دون كل شهاب
أنت ياعمرو قوّتى وحيــاتى ولسانى وأنت ظفرى ونابى
أترانى أنسى أياديك البيض إذا اسود نائــل الأصحاب
أين عطف الكرام فى مأقط الحـــاجة يحمون حوزة الآداب
أين أخلاقك الرضية حالت فىّ أم أين رقــة الكتاب
إن عطف الأديب فى بلد الغر بة جود على ذوى الألبــاب
أنا فى ذمــة السحاب وأظما إن هذا لوصمة فى السحاب
قم إلى سيد الــبرية عنى قومة تستجر حسن خطاب
فلعــل الإلــه يطفئ عنى بك ناراً علىّ ذات التهــاب

فلم يزل عمرو يلطف للمأمون حتى رقق قلبه عليه ثم وصل بعد ذلك إلى أن عاد إليه ما كان مفروضاً له من عطاء وإن كان قد جعل عقوبة ذنبه امتناعه من استخدامه.

إنها أعوام عجاف أتت على الحسين تتجاوز الستة ثم ابتعاد عن حياة اللهو التى كان يتعشقها ويهواها ثم خوف مع ذلك من أن يبدو للمأمون أمر وأن تبدر منه بادرة فخفت الصوت المرح إلى حين وتوقف البلبل عن التغريد فى انتظار ما تأتى به الأيام وهو حريص على السلامة راغب فى الدعة قانع بالسكون ويكفيه عودة العطاء ويحمد الله على أنه لم تطح رأسه السيوف . والذى نلحظه عليه فى هذه الفترة الطويلة من حكم المأمون أنه لم يتتبع الممدوحين وما أكثرهم فهو كما قدمنا ليس بالنهم ولا بالجامع للأموال وقد يكون فيما تلمسه المأمون من أسبابٍ قتل بها على بن جبلة العكوك الشاعر – مادح أبى دلف – تحذير وتعليم .

المعتصم

عادت البسمة إلى حياة الحسين وأقبلت الدنيا عليه بعد إدبار يوم أن مات المأمون وتولى أخوه المعتصم الخلافة فقد سأل عن الحسين بن الضحاك فأخبروه بإقامته بالبصرة لانحراف المأمون عنه فأمر بمكاتبته بالقدوم عليه فقدم يدفعه الأمل إلى أن تعود له المكانة عند الخليفة كما كانت أيام الأمين فأعد نفسه واعتصر ذهنه واستلهم شاعريته حتى يقابل تلك الموقعة الفاصلة . والواقع أن الحسين لم تعرف له مطولات فى المديح وإبداع فيه قبل المعتصم ، ذلك أن السؤال عنه والكتابة إليه بالحضور وطول الجفوة فى عهد المأمون كانت خير ملهم للمديح اعترافاً بالجميل وتقديراً للإحسان، فلما دخل على المعتصم استأذن فى الإنشاد فأنشده :

هلا رحمت تلدد[١] المشتاق ومننت قبـل فراقه بتلاق

إن الرقيب ليستريب تنفس الصـ عدا[٢] إليك وظاهر الإقلاق

---

(١) التلدد : التحير .

(٢) الصعداء : التنفس الطويل من هم أو تعب .

ولئن أربت[1] لقد نظرت بمقلة   عبرى عليك سخينة الآماق
نفسى الفداء لخائف مترقب   جعل الوداع إشارة بعناق
إذ لا جواب لمفحم متحـــير   إلا الدموع تصان بالإطراق

* * *

خـــير الوفود مبشر بخلافة   خصت ببهجتها أبا إسحق
وافته فى الشهر الحرام سليمة   من كل مشكلة وكل شقاق
أعطته صفقتها الضمائر طاعة   قبل الأكف بأوكد الميثاق
سكن الأنامُ إلى إمام سلامة   عف الضمير مهذب الأخلاق
فحمى رعيته ودافع دونها   وأجار مملقها من الإملاق
قل للألى صرفوا الوجوه عن الهدى   متعسفـــين تعسف المراق
إنى أحذركم بوادر ضيغم   درب بحطم موائل الأعناق
متأهب لا يستفـــز جنانه   زجل الرعود ولامع الإبراق
لم يُبق من متعرمـــين توثبـــوا   بالشام غـــير جماجم أفلاق
من بين منجدل تمج عروقه   علق[2] الأخادع أو أسير وثاق
وثنى الخيول إلى معاقل قيصر   تختال بين أحزة ورقاق[3]

---

(١) أراب الرجل : صار ذا ريبة .
(٢) العلق : الدم والأخادع : عروق فى العنق .
(٣) الأحزة : جمع حزيز وهو الغليظ من الأرض . والرقاق : المستوية اللينة من الأرض .

يحملن كل مشمر متغشم ليث هزبر أهرت الأشداق[١]
حتى إذا أم الحصون منازلا والموت بين ترائب وتراق
هرت[٢] بطارقها هرير ثعالب بدهت بزأر قساور طراق
ثم استكانت للحصار ملوكهم ذلا وناط حلوقهم بخناق[٣]
هربت وأسلمت الصليب عشية لم يبق غير حُشاشة الأرماق[٤]

فلما أتمها قال له المعتصم : ادن منى فدنا منه فملأ فمه جوهراً من جوهر كان بين يديه ثم أمره بأن يخرجه من فيه فأخرجه وأمر بأن ينظم ويدفع إليه ويخرج إلى الناس وهو فى يده ليعلموا موقعه من رأيه ويعرفوا فعله وأمر له لكل بيت بألف درهم وقال له : أنت تعلم يا حسين أن هذا أكثر ما مدحنى به مادح فى دولتنا . فقبّل الأرض بين يديه وشكره وحمل المال معه . وهكذا عادت مياه الحسين إلى مجاريها وأصبح من ندمان المعتصم يغشى مجالسه ويدخل داره ويعرف دخائل نفسه فيلتمس ما يرضيه ويصوغه شعراً يطربه فيأمر بأن يتغنى فيه .

---

(١) المتغشم : الغضوب ، وهرت الأشداق سعتها والأسود توصف بسعة أشداقها .

(٢) هرت : صوتت .

(٣) الخناق : ما يخنق به من حبل ونحوه .

(٤) الأرماق : جمع رمق وهو بقية الحياة

ولا تخلو مجالس الشراب من فلتات فقد جرى من الحسين شيء على النبيذ فقال المعتصم: والله لأؤدبنه وحجبه أياماً فكتب إليه يسترضيه :

غضب الإمام أشد من أدبه وقد استجرت وعذت من غضبه
أصبحت معتصماً بمعتصم أثنى الإلــه عليه فى كتبه
لا والذى لم يبق لى سببــاً أرجو النجاة به سوى سببه
ما لى شفيــع غير حرمته ولكل من أشفى[1] على عطبه

فلما قرئت عليه التفت إلى ابنه الواثق ثم قال : بمثل هذا الكلام يستعطف الكرام ما هو إلا أن سمعت أبيات الحسين هذه حتى أزالت ما فى نفسى عليه . فقال له الواثق : هو حقيق بأن يوهب له ذنبه ويتجاوز عنه . فرضى عنه وأمر بإحضاره .

ولما اختط المعتصم مدينته سر من رأى أقطع الناس فيها دوراً وقد مضى كيف أقطع الحسين فكانت له فيها دار مجاورة للخليفة وأصبحت هذه المدينة فى نظر الحسين أجمل من بغداد وأسرّ .

« سر من را » أسرّ من بغداد فاله عن بعض ذكرها المعتاد
حبذا مسرح لها ليس يخلو أبداً من طريدة وطــراد

---

(١) أشفى على الشيء قاربه ومنه أشفى المريض على الموت أى قاربه

ورياض كأنما نشر الزهـ ـر عليها محبّر الأبراد
واذكر المشرف المطل من التـ ـل على الصادرين والوراد
وإذا روّح الرعاء فلا تنس رواعى فراقد الأولاد

وانطلق لسان الحسين فى المديح وتلاحقت تهانيه للمعتصم فهو رجل حرب أكثر منه رجل لهو وشراب وجعل يذكر فتوحه فقد تغلب فى أنقرة وفتح عمورية ومعه قائده أبو الحسن الأفشينُ من بنى كاوس وتغلب على توفيل ملك الروم وهزم الأفشينُ بابكاً الخرمى المخرب صاحب المذهب الذى يدين بما يريد ويشتهى وجاء به أسيراً بعد أن استسلم فيقول الحسين :

لم تبق من « أنقرة » نقرة واجتحت عمورية الكبرى
إن يشك « توفيل » بتاريخه فحق أن يعذر بالشكوى
تفنى بنو العيص[1] وأيامهم وذكر أيامك لا يفنى
يا رب قد أملكت من بابك فاجعل لتوفيلهم العقبى

وهو فى شعره الآتى أوضح فى عرض الحوادث ، وإذا مدح الأفشين فإنما يجعله ذريعة لمدح المعتصم لا ينساه ولا يغفله :

أثبت المعصوم عزّاً لأبى حسن أثبت من ركن إضم
كل مجد دون ما أثله لبنى كاوس أملاك العجم
إنما الأفشين سيف سله قدر الله بكف المعتصم

---

(١) العيص : من ذرية نوح ينسب إليه الروم .

لم يدع « بالبذ » من ساكنه   غير أمثال كأمثال « إرم »
ثم أهــدى سلما « بابكه »   رهن حجلين نجيـا للندم
وقرا « توفيل » طعناً صادقاً   فض جمعيــه جميعاً وهــزم
قتــل الأكثر منهــم ونجا   من نجا لحماً على ظهر وضم(١)

وإذا عرض له ما يجعله يغادر « سر من رأى » إلى بغداد ، يتشوق إليها ويسخط على بغداد تلك التي كانت من قبل حبيبة إليه ويرى أن المعتصم خير عباد الله قد ألهمه الله إلى أن يصطفى سر من رأى والمصيف على غيرهما من البلاد :

على سر من را والمصيف تحية   مجللــة من مغرم بهواهما
ألا هل لمشتاق ببغداد رجعــة   تقرب من ظليهما وذراهما(٢)
محلان لقى الله خــير عباده   عزيمة رشد فيهما فاصطفاهما
وقولا لبغـــداد إذا ما تنسمت   على أهل بغداد جُعلتِ فداهما
أفى بعض يوم شفّ عينىّ بالقذا   حرورك حتى رابنى ناظراهما؟

---

(١) يقال تركهم لحما على وضم أى أوقع بهم .
(٢) الذرى : فناء الدار ونواحيها .

الواثق

أعجب الواثق وهو ولى للعهد بالحسين الخليع وجعله قريباً منه وأثيراً عنده وكان يتوسط لدى والده المعتصم إذا غضب على الحسين . وأدى الحسين المنادمة على وجهها المطلوب يحث الواثق على الشراب ويغريه به إذا لم يكن نشيطاً له. دخل الحسين على الواثق فى خلافة والده المعتصم فى يوم طيب فحثه على الصبوح فلم ينشط له فقال : اسمع ما قلت : قال : هات فأنشده :

حثت صبوحى فكاهة اللاهى ... وطاب يومى لقرب أشباهى
فاستثر اللهو من مكامنه ... من قبل يوم منغص ناهى
بابنة كرم من كف منتطق ... مؤتزر بالمجون تيّاه
يسقيك من طرفه ومن يده ... سقى لطيف مجرب داهى
كأساً فكأساً كأن شاربها ... حيران بين الذّكور والساهى

فنشط الواثق وقال : إن فرصة العيش لحقيقة أن تنتهز واصطبح ووصل الحسين .

ولما بويع الواثق بالخلافة بعد موت أبيه دخل الحسين عليه معزياً ومهنئاً فجمع بينهما وأبدع فى التخلص من دموعه إلى اطمئنانه بالمستقبل .

ألم يرع الإسلام موت نصيره بلى حق أن يرتاع من مات ناصره
سيسليك عما فات دولة مفضل أوائلـــه محمودة وأواخـــره
ثنى الله عطفيه وألف شخصه على البر مذ شدت عليه مآزره
يصب ببذل المال حتى كأنما يرى بذله للمال نهباً يبـــادره
وما قدم الرحمن إلا مقـــدماً مـوارده محمـــودة ومصادره

فقال الواثق إن كان الحسين لينطق عن حسن طوية ويمدح بخلوص نية . ثم أمر بأن يعطى لكل بيت قاله من هذه القصيدة ألف درهم وأعجبته الأبيات حتى أمر فصنعت فيها عدة ألحان ثم استخلصه نديماً مقيماً وصيره شاعر اللهو المقصور عليه والملازم لداره المتهيء لأن يطلبه فى أى ساعة من ساعات الليل والنهار وأفردت له حجرة خاصة فى القصر لينام فيها . وإن سنه التى جاوزت السبعين تجعله عاجزاً عن الفساد أو لا تتطلع إليه ذوات الشباب ويجدون فى تصابيه الذى لا يضر مرحاً حبيباً إليهم مرغوباً فيه عندهم . يذكر الحسين أنه كانت له نوبة فى دار الواثق يحضرها ، جلس الواثق أو لم يجلس ، فبينا هو نائم ذات ليلة فى حجرته إذ جاءه خادم من خدم الحرم فقال : قم فإن أمير المؤمنين يدعوك ، فقال له : وما الخبر ؟ قال : كان نائماً وإلى جنبه حظية له فقام وهو يظنها نائمة فألم بجارية له أخرى ولم تكن ليلة نوبتها وعاد إلى

فراشه فغضبت حظيته وتركته حتى نام ثم قامت ودخلت حجرتها فانتبه وهو يظن أنها عنده فلم يجدها فقال : ويحكم أين هى فأخبروه أنها قامت غضبى ومضت إلى حجرتها . وهذا هو الذى جعله يدعوك . فقال الحسين فى طريقه :

غضبت أن زرت أخرى خلسة فلهـــا العتبى لدينـــا والرضا
يا فدتك النفس كانت هفوة فاغفريها واصفحى عما مضى
واتركى العذل على من قاله وانسبى جورى إلى حكم القضا
فلقـــد نبهتنى من رقـــدتى وعلى قلبى كنيران الغضا

فلما جاءه خبّره الواثق القصة وقال له : قل فى هذا شيئاً ففكر هنيهة كأنه يقول شعراً ثم أنشده الأبيات ، فقال : أحسنت وحياتى أعدها يا حسين فأعادها عليه حتى حفظها وأمر له بخمسمائة دينار وقام فمضى إلى الجارية وخرج الحسين إلى حجرته .

والذى نلحظه فى أخبار الواثق أنه كان يعجب بالشعر وأنه كان دائماً يطلب من الحسين أن يقول شعراً يناسب ما هم فيه أو يسأله هل عمل فى حال سبقت أو مجلس مضى لهم شعراً وكان الحسين يهيىء نفسه لمثل هذه المفاجآت التى تعود وقوعها ويستعد لها ولعله أصبح سريع الهاجس فى مثل هذه الموضوعات التى يراد أن يقول فيها لكثرة ما مارس ألوانها

وجال فى ميدانها وإنى لأورد بعضاً مما روى تأييداً لما أقول .
قال الواثق للحسين بن الضحاك : قل الساعة أبياتاً ملاحاً حتى أهب لك شيئاً مليحاً فقال : فى أى معنى يا أمير المؤمنين فقال : امدد طرفك وقل فيما شئت مما ترى بين يديك وصفه فالتفت فإذا ببساط زهره قد تفتحت أنواره وأشرق فى نور الصبح. فارتج على الحسين ساعة حتى خجل وضاق ذرعاً فقال له الواثق : مالك ويحك ألست ترى نور صباح ونور أقاح . فانفتح القول على الحسين فقال :

ألست ترى الصبح قد أسفرا ومبتكر الغيث قد أمطرا
وأسفرت الأرض عن حلة تضاحك بالأحمر الأصفرا
ووافاك نيسان فى ورده وحثك فى الشرب كى تسكرا
وتعمل كأسين فى فتية تطارد بالأصغر الأكبرا
يحث كئوسهم مخطف تجاذب أردافه المئزرا
ترجل بالبان حتى إذا أدار غدائره وفرا
وفضض فى الجلنار البها ر والأبنوسة والعبهرا
فلما تمازج ما شذرت مقاريض أطرافه شذرا
فكل ينافس فى بره ليفعل فى ذاته المنكرا

فضحك الواثق وقال : سنستعمل كل ما قلت يا حسين إلا الفسق الذى ذكرته فلا ولا كرامة ، ثم أمر بإحضار الطعام فأكل وأكلوا معه ثم قال : قوموا بنا إلى حانة الشط فقاموا إليها فشرب

وطرب وما ترك يومئذ أحداً من الجلساء والمغنين والحشم إلا أمر له بصلة وكانت من الأيام التى سارت أخبارها وذكرت فى الآفاق فلما كان من الغد غدا إليه الحسين فقال له الواثق أنشدنى يا حسين شيئاً إن كنت قلته فى يومنا الماضى فقد كان حسناً فأنشده :

يا حانة الشط قد أكرمت مثوانا عودى بيوم سرور كالذى كانا
لا تفقدينا دعابات الإمام ولا طيب البطالة إسراراً وإعلانا
ولا تخالعنا فى غير فاحشـــة إذا يطربنا الطنبور أحيانا
وهاج زمر زنام بين ذاك لنـــا شجواً فأهدى لنا روحاً وريحانا
وسلسل الرطل عمرو ثم عم به السقيا فألحق أولانا بأخرانا
سقيــاً لشكلك من شكل خصصت به
دون الدساكر من لذات دنيـــانا
حفت رياضك جنات مجاورة فى كل مخترق نهرا وبستانا
لا زلت آهلة الأوطان عامرة بأكرم الناس أعراقاً وأغصاناً

فأمر له الواثق بصلة سنية مجددة واستحسن الصوت وأمر فغنى فى عدة أبيات منها . وكان الواثق يتحظى جارية له فماتت فجزع عليها وترك الشرب أياماً ثم سلاها وعاد إلى حاله فدعا الحسين ليلة فقال له : يا حسين رأيت فلانة فى النوم فليت نومى كان طال قليلا لأتمتع بلقائها فقل فى هذا شيئاً

فقال الحسين :

ليت عين الدهر عنا غفلت ورقيب الليـل عنا رقـدا
وأقـام النـومُ فى مدتـه كالـذى كان وكنـا أبدا
بأبى زور تلفت لـه فتنفست إليـه الصعـدا
بينما أضحك مسروراً به إذ تقطعت عليه كمدا

فقال له الواثق : أحسنت ولكنك وصفت رقيب الليل فشكوته ولا ذنب لليل وإنما رأيت الرؤيا نهاراً ثم عاذ الواثق إلى منامه فرقد .

ولقد كانت إنعامات الواثق على الخليع متواترة وأياديه مفضلة وإعجابه به عن فهم وتقدير وكان مديح الحسين له عن شعور صادق لا افتعال فيه ولا تكلف .

فمثلا قصيدة الحسين التى قالها وقد كانوا مع الواثق بالقاطول — وهو نهر كأنه مقطوع من دجلة — حينما خرج يتصيد والتى مطلعها :

سقى الله بالقاطول مسرح طرفكا وخص بسقياه مناكب قصركا

نجد الحسين يبدع فيها ويسوق المديح كأنه لآلىء منظومة ومما قاله من مديحها :

خلقت أمين الله للخلق عصمة وأمناً فكل فى ذراك وظلكا
وثقت بمن سماك بالغيب واثقاً وثبت بالتأييد أركان ملككا

فأعطاك معطيك الخلافة شكرها وأسعد بالتقوى سريرة قلبكا
وزادك من أعمارنا — غير منة عليك بها أضعاف أضعاف عمركا
ولا زالت الأقدار فى كل حالة عداة لمن عاداك سلما لسلمكا
إذا كنت من جدواك فى كل نعمة
فلا كنت إن لم أفن عمرى بشكركا

فطرب الواثق فضرب الأرض بمخصرة كانت فى يده وقال : لله درك يا حسين ما أقرب قلبك من لسانك فقال : يا أمير المؤمنين جودك ينطق المفحم بالشعر والجاحد بالشكر فقال له : لن تنصرف إلا مسروراً ثم أمر له بمال كثير .

وإنها لأبيات لا تحتاج جمالها إلى توضيح ولا سحرها إلى بيان فكلها سحر وكلها جمال .

المتوكل

كان الحسين يذهب إلى المتوكل فى خلافة أخيه الواثق فأبى الواثق عليه ذلك وضربه ولعاً به وتحذيراً له فلما تولى المتوكل الخلافة بعد أخيه حرص على أن يكون الحسين بين ندمانه ومجالسيه والحسين إذ ذاك قد خاض فى الثمانين من عمره وليس فيه إلا تصابى الشيوخ . وقد مرّ بك أن المتوكل قال لعلى ابن الجهم إن الحسين عندى أشعر أهل زماننا وأملحهم مذهباً وأظرفهم نمطاً . . .

ولكن شاعرنا كان يحس بشيخوخته ويعلم أنه كما يقول :

أصبحت من أسراء الله محتسباً　　فى الأرض بين قضاء الله والقدر

إن الثمانين إذ وفيت عدتها　　لم تبق باقية منى ولم تذر

وكان يتحسر على شبابه بعد أن تقارب خطوه ولم يبق فيه شيء مما يشفع له عند الحسان فيقول :

تذكر من عاداته ما تذكرا　　وأعول أيام الشباب فأكثرا

وما برحت عاداته مستقرة　　ولكن أجل الشيب عنها ووقرا

يهم ويستحيى تقارب خطوه　　فيتركهم النفس فى الصدر مضمرا

ولم يبق فيه إذ تأمل شخصه　　شفيع إلى الحسناء إلا تنكرا

ألا لا أرى فى العيش للمرء متعة   إذا ما شباب المرء ولى وأدبرا

وتوالت أعوامه لكن الضعف لم يتركه فى متعته ولم يدعه فى لهوه فجعل يستعفى المتوكل من الخدمة وقد عرفت ما قاله فى أبياته :

أسلفت أسلافك فيما مضى   من خـــدمتى إحدى وستينا

. . . .

غير أن المتوكل حريص عليه ما يزال يأمره بمنادمته وملازمته وهو لا يطيق ذلك لكبر سنه فيتخلف مكرهاً ، وإن فى مجلس الخليفة من لا يمسك اللسان ولا يعذر الضعيف فيقول للخليفة ما سبق أن قدمته لك : « هو يطيق الذهاب إلى القرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك » فيبعث الحسين بما قدمناه من شعره الذى مطلعه :

أمـــا فى ثمانـــين وفيتها   عذير وإن أنا لم أعتذر

. . . .

ثم انتهت أيام المتوكل بمصرعه على يد من أوعز إليهم ابنه محمد المنتصر الذى تولى الخلافة من بعده . وشاعرنا يريد أن تنتهى أيامه فى رخاء أليست سنه بضعاً وتسعين سنة ، فيتحامل إلى دار الخلافة مهنئاً :

تجددت الدنيا بملك محمد   فأهلا وسهلا بالزمان المجدد

هي الدولة الغراء راحت وبكرت مشهورة بالرشد في كل مشهد
لعمري لقد شدت عرا الدين بيعة أعز بها الرحمن كل موحد
هنتك أمير المؤمنين خلافة جمعت بها أهواء أمة أحمد

فأظهر المنتصر إكرامه والسرور به وقال له : إن فى بقائك بهاء للملك وقد ضعفت عن الحركة فكاتبنى بحاجاتك ولا تحمل على نفسك بكثرة الحركة ووصله بثلاثة آلاف دينار ليقضى بها ديناً بلغه أنه عليه .

وعجيب أن تظل فى شاعرية الخليع قوة وإبداع مع إشرافه على نهاية العقد العاشر من حياته ، على أنه لم يشأ أن يخفت صوته فكان آخر شعر قاله هو ما قدمناه لك فى موجز حياته :

ألا ليت شعـــرى أبدر بدا نهـــاراً أم المـــلك المنتصر

. . . .

وانتهى المنتصر قبل أن يهنأ بالخلافة بعد ستة أشهر من ولايته قبل أن يطوى الموت الحسين الخليع وإن كان قد خفت صوته واحتبس لسانه ثم سكنت حركته وانطلقت روحه من جسده سنة ٢٥٠ ه .

نوادره وأخباره

قد مر بك فى جميع الفصول التى مضت أخبار ونوادر للحسين بن الضحاك . وإذا ذكرنا هنا أخباراً ونوادر أخر فإنما ذلك لنستوفى جوانب الشاعر وقد يجد فيها القارئ تصديقاً لما قلناه وقد يرى فيه رأياً آخر يتلمسه فيما رويناه . وإنى لأقتبس من أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد قوله :

« بعض النوادر والأخبار يراد لذاته ويحسن السكوت عليه إذا رويت كل نادرة منه على حدة . ومن النوادر الفكاهة والنوادر التى تشتمل على خبر من أخبار المعرفة العامة أو جواب مسكت أو نكتة من البلاغة . وليس بالضرورى أن تكون النوادر والأخبار التى تساق فى معرض التراجم والسير من هذا القبيل بل يكفى أن تكون النادرة مشتملة على عادة من عادات المترجم له أوسمة من سماته لتستحق الإثبات والمراجعة » . ولما كانت الكتب تورد الشعر وتقلل من الأخبار فإن الأغانى كان العدة فى أغلب ما مر من نوادر وقصص وما يقدم من أخبار لعنايته بأمثال هذه الموضوعات .

* * *

شرب الحسين بن الضحاك يوماً عند إبراهيم بن المهدى فجرت بينهما ملاحاة فى أمر الدين والمذهب فدعا له إبراهيم بنطع وسيف وقد أخذ منه الشراب فانصرف وهو غضبان فكتب إليه إبراهيم يعتذر إليه ويسأله أن يجيئه فكتب إليه الحسين :

نديمى غــير منسوب إلى شىء من الحيف
سقانى مثل ما يشر ب فعل الضيف بالضيف
فلما دارت الكأس دعـا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الخمر مع التنين فى الصيف

ولم يعد إلى منادمته مدة ثم إن إبراهيم تحمل عليه ووصله وأرضاه . وكان المأمون يضاحك إبراهيم بن المهدى بهذه الأبيات ويولع بها .

* * *

وكان يوماً عند صالح بن الرشيد فجرى بينهما كلام على النبيذ وقد أخذ الشراب من الحسين مأخذاً قوياً فرد على صالح رداً أنكره وتأوله على غير ما أراده الحسين فهاجره فكتب إلى صالح :

يا ابن الإمام تركتنى هملا أبكى الحياة وأندب الأملا
ما بال عينك حين تلحظنى ما إن تقل جفونها ثقـلا
لو كان لى ذنب لبحت به كى لا يقال هجرتنى مللا

إن كنت أعرف زلة سلفت فرأيت ميتة واحدى عجلا(١)

فكتب صالح إليه : قد تلافى لسانك بشعرك ما جناه فى وقت سكرك وقد رضيت عنك رضاً صحيحاً فصر إلىّ على أتم نشاطك وأكمل بساطك فعاد إلى خدمته وما سكر بعدها عنده .

* * *

ومزح أحد أبناء الرشيد معه مزاحاً أغضب الحسين فجاوبه جواباً غضب منه ابن الرشيد أيضاً فمضى إليه الحسين من غد فاعتذر إليه وتنصل وحلف فأظهر له قبولا لعذره ورأى الحسين ثقلا فى طرفه وانقباضاً عما كان يعهده منه فقال فى ذلك :

لا تعجبن لملّة صرفت وجه الأمير فإنه بشر
وإذا نبا بك فى سريرته عقد الضمير نبا بك البصر

* * *

وكان يهوى جارية لأم جعفر وكانت من أجمل الجوارى وكانت تخرج إليه إذا جاء فتقول له : ما قلت فينا ؟ أنشدنا منه شيئاً فيخرج إليها الصحيفة فتقول له : اقرأ معى فيقرأ معها حتى تحفظه ثم تدخل وتأخذ الصحيفة ، فشكا ذلك

---

(١) المعنى أنه يدعو على ولده الواحد بالموت عاجلا إذا كان يعرف له زلة أو غلطة سابقة .

إلى عاصم الغسانى وكان مكيناً عند أم جعفر وسأله أن يستوهبها له فاستوهبها فأبت عليه أم جعفر فوجه إلى الخليع بألف دينار وقال : خذ هذا الألف فقد جهدت الجهد كله فيها فلم تمكنى حيلة فقال الحسين فى ذلك :

رمتك غداة السبت شمس من الخلد(١) بسهم الهوى عمداً وموتك فى العمد

مؤزرة السربال مهضومة الحشا غلامية التقطيع شاطرة القد

محنأة الأطراف رؤد شبابهـا معقربة الصدغين كاذبة الوعد

أقول ونفسى بين شوق وزفرة وقد شخصت عينى ودمعى على الخد

أجيزى على من قد تركت فؤاده بلحظته بين التأسف والجهد

فقالت عذاب بالهوى مع قربكم وموت إذا أقرحت قلبك بالبعد

لقد فطنت للجور فطنة عاصم لصنع الأيادى الغر فى طلب الحمد

سأشكوك فى الأشعار غير مقصر إلى عاصم ذى المكرمات وذى المجد

لعل فتى غسان يجمع بيننـا فيأمن قلبى منكم روعة الصد

* * *

غنى بعض المغنين فى مجلس الأمين — ولعل ذلك كان قبل اتصال الحسين به — بشعر للحسين فأمر بإحضاره فأحضر وقد كان الأمين شرب أرطالا فلما مثل بين يديه أمر فسقى

---

(١) الخلد : قصر للمنصور العباسى على شاطىء دجلة توارثه أبناؤه من بعده .

الحسين ثلاثة أرطال فلم يستوفها حتى غلبه السكر وقذف فأمر الأمين بحمله إلى منزله فحمل فلما أفاق كتب إليه :

إذا كنت فى عصبـــة من المعشر الأخيب
ولم يـــك لى مسعـــد نـــديم سوى جعـــدب
فأشرب من رمـــلة وأسهر من قطـــرب(١)
ولـــا حبـــانى الزمـــا ن من حيث لم أحسب
ونادمت بـــدر السما ء فى فـــلك الكوكب
أبت لى غضـــوضـــيتى(٢) ولـــؤم من المنصـــب
فأســـكرنى مسرعـــاً قـــوى من المشرب
كـــذا النـــذل ينبو به منادمـــــة المنجـــب

فرده الأمين إلى منادمته وأحسن جائزته وصلته .

* * *

وكان الواثق يميل إلى الفتح بن خاقان ويأنس به وهو يومئذ غلام فاعتل الفتح فى أيام الواثق علة صعبة ثم أفاق وعوفى فعزم الواثق على الصبوح فقال للخليع : يا حسين اكتب بأبيات عنى إلى الفتح تدعوه إلى الصبوح فكتب إليه :

لما اصطبحت وعين اللهو ترمقنى قدلاح لى باكراً فى ثوب بذلته

---

(١) أشرب من رمل وأسهر من قطرب مثلان عربيان .

(٢) المراد بالغضوضية هنا الطيش والنزق وهما من لوازم الشباب .

ناديت فتحاً وبشرت المدام به   لما تخلص من مكروه علته
ذب الفتى عن حريم الراح مكرمة   إذا رآه امرؤ ضداً لنحلته
فاعجل إلينا وعجل بالسرور لنا   وخالس الدهر فى أوقات غفلته

فلما قرأها الفتح صار إليه فاصطبح معه .

* * *

وكان فى مجلس مع جماعة وهم على نبيذ فعبث بالمغنية التى تغنيهم فصاحت عليه واستخفت به فأنشأ يقول :

لها فى وجهها عُكن   وثلثا وجهها ذقن
وأسنان كريش البـ   ـط بين أصولها عفن

فضحكوا وبكت المغنية بكاء حاراً ولم ينتفعوا بها بقية يومهم. وشاع هذان البيتان فكسدت من أجلهما وكانت إذا حضرت فى موضع أنشدوا البيتين فتجن . ثم هربت من « سر من رأى » فما عرف لها بعد ذلك خبر .

* * *

ودخل على الواثق ذات يوم وفى السماء قليل من الغيم فقال الواثق للحسين ما الرأى عندك فى هذا اليوم ؟ فقال يا أمير المؤمنين ، ما حكم به وأشار إليه قبلى أحمد بن يوسف فإنه أشار بصواب لا يرد وجعله فى شعر لا يعارض فقال الواثق وما قال ؟ قال الحسين : إن أحمد بن يوسف قال :

أرى غيما تؤلفه جنوب وأحسبه سيأتينـــا بهطل
فعين الرأى أن تدعو برطل فتشربه وتدعو لى برطل

فقال الواثق : أصبتما ، ودعا بالطعام وبالشراب والمغنين والجلساء واصطبحوا .

* * *

كتب الحسن بن رجاء إلى الحسين بن الضحاك فى يوم شك ــ وهو اليوم الذى يكون بعد التاسع والعشرين من شهر شعبان وتغيم السماء فلا يعرف إن كان ما بعده تمام الثلاثين أو هو أول رمضان ــ وقد أمر الواثق بالإفطار فى هذا اليوم وكان ما كتبه ابن رجاء هو قوله

هزرتك للصبوح وقد نهانا أمير المؤمنين عن الصيام
وعندى من قيان القصر عشر تطيب بهن عاتقة المدام

فوصلت رقعة الحسن بن رجاء إلى الحسين الخليع وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بسخنر ووجه إليه بغلام جميل ومعه ثلاثة من الغلمان حسان الوجوه ، ومعهم رقعة قد كتبها ابن بسخنر كما تكتب المناشير وختمها فى أسفلها وكتب فيها يقول :

سر على اسم الله يا أشـ كل من غصن بلجـين
فى ثلاث من بنى الرو م إلى دار الحسـين
فاشخص الــكهل إلى مو لاك يا قـرة عيـنى

أره العنف إذا استعصى وطالبه بدين
ودع اللفظ وخاطبه بغمز الحاجبين
واحذر الرجعة من وجهك فى خفى حنين

فمضى الحسين معهم وكتب إلى الحسن بن رجاء جواب رقعته :

دعوت إلى مماحكة الصيام وإعمال الملاهى والمدام
ولو سبق الرسول لكان سعيي إليك ينوب عن طول الكلام
وما شوقى إليك بدون شوقى إلى ثمر التصابى والغرام
ولكن حل فى نفر عسوفٌ بمنشور محل المستهام
حسينٍ فاستباح له حريماً بطرف باعث سبب الحمام
وأظهر نخوة وسطا وأبدى فظاظته بتركٍ للسلام
وأزعجنى بألفاظ غلاظ وقد أعطيته طرفى زمامى
ولو خالفته لم يخش قتلى وقنعنى سريعاً بالحسام

* * *

وكان له صديق يتعشق جارية مغنية فزاحمه فيها غلام كان وهو أمرد حسن الوجه فلما خرجت لحيته جعل ينتف ما يخرج منها ومالت المغنية إليه لشبابه فشكا ذلك إلى الحسين بن الضحاك وسأله أن يقول فيها شعراً فقال :

خل الذى عنك لا تسطيع تدفعه
يا من يصارع من لا شك يصرعه

جاءت طرائق شَعر أنت ناتفها ... فكيف تصنع لو قد جاء أجمعه
الله أكبر لا انفك من عجب ... أأنت تحصد ماذو العرش يزرعه
تبًّا لسعيك بل تبًّا لأملك إذ ... ترعى حمًى خالق الأحماء يمنعه

وقال فيه أيضاً :

ثكلتك أمك يابن يوسف ... حتام ويحك أنت تنتف
لو قد أتى الصيف الـذى ... فيه رؤوس النـاس تكشف
فكشفت عن خديـك لى ... لكشفت عن مثل المفوّف(١)
أو مثل زرع ناله الـ ... يرقان أو نـكباء حرجف(٢)
فغـدا عليه الـزارعو ... ن ليحصدوه وقـد تقصف
فظللت تـأسف كالألى ... أسفوا ولم يَغن التأسف

* * *

وحدث الحسين بن الضحاك قال : كان يألفنى إنسان من الجنود عجيب الخلقة والزى والشكل غليظ جلف جاف فكنت أحتمل ذلك كله له ويكون حظى التعجب به وكان يأتينى بكتب من عشيقة له ما رأيت كتباً أحلى منها ولا أظرف ولا أبلغ ولا أشكل من معانيها ويسألنى أن أجيب عنها فأجهد نفسى فى الجوابات وأصرف عنايتى إليها على علمى بأن هذا الجندى

---

(١) البرد المفوف هو الذى فيه خطوط .

(٢) اليرقان : آفة للزرع والنكباء الحرجف : الريح الباردة .

بجهله لا يميز بين الخطأ والصواب ولا يفرق بين الابتداء والجواب فلما طال ذلك علىّ حسدته وتنبهت إلى إفساد حاله عندها فسألته عن اسمها فقال : « يصبص » . فكتبت إليها بالنيابة عنه فى جواب كتاب منها جاءنى به :

أرقصنى حبك يا بصبص والحب يا سيدتى يرقص
أرمصت أجفانى بطول البكا فما لأجفانك لا ترمص(١)
وا بأبى وجهك ذاك الذى كأنه من حسنه عصعص(٢)

فجاءنى بعد ذلك فقال لى : يا أبا على ، جعلنى الله فداءك ما كان ذنبى إليك وما أردت بما صنعت بى؟ فقلت له : وما ذاك عافاك الله ؟ فقال : ما هو والله إلا أن وصل ذلك الكتاب إليها حتى بعثت إلىّ : إنى مشتاقة إليك والكتاب لا ينوب عن الرؤية فتعال إلى الروشن الذى بالقرب من بابنا فقف بحياله حتى أراك ، فتزينت بأحسن ما قدرت عليه وصرت إلى الموضع . فبينا أنا واقف أنتظر مكلما أو مشيراً إلىّ إذا شىء قد صب علىّ فملأنى من قرنى إلى قدمى وأفسد ثيابى وسرجى وصيرنى وجميع ما علىّ ودابتى فى نهاية السواد والنتن والقذر وإذا به ماء قد خلط ببول وسواد سرجين فانصرفت بخزى وكان ما مر بى من

(١) الرمص : وسخ أبيض فى مجرى الدمع من العين .
(٢) العصعص : عظم الذنب .

الصبيان وسائر من مررت به من الضحك والطنز والصياح بى أغاظ مما مر بى، ولحقنى من أهلى ومن فى منزلى شر من ذلك وأوجع . وأعظم من ذلك أن رسلها انقطعت عنى جملة . قال الحسين : فجعلت أعتذر إليه وأقول له : إن الآفة أنها لم تفهم معنى الشعر لجودته وفصاحته . وأنا أحمد الله على ما ناله وأسر الشماتة به .

تلاحى الحسين ومخارق فى أبى العتاهية وأبى نواس أيهما أشعر فاتفقا على اختيار شعر من شعريهما يتخايران فيه فاختار الحسين ابن الضحاك شيئاً من شعر أبى نواس جيداً قوياً لمعرفته بذلك واختار مخارق شيئاً من شعر أبى العتاهية ضعيفاً غزلا كان يغنى فيه لا لشىء عرفه منه إلا أنه استملحه وغنى فيه فخاير به لقلة علمه ولما كان بينه وبين أبى العتاهية من المودة وتراهنا على مال وتحاكما إلى من يرتضيه الواثق بالله ويختاره لهما فاختار الواثق لذلك أبا محلم وبعث فأحضره وتحاكما إليه بالشعرين فحكم لحسين بن الضحاك فتلكأ مخارق وقال : لم أحسن الاختيار للشعر ، وحسين أعلم منى بذلك وإن لأبى العتاهية خيراً مما اخترت وقد اختار الحسين أجود ما قدر عليه لأبى نواس لأنه أعلم منى بالشعر ولكنا نتخاير بالشاعرين فتحاكما فحكم لأبى نواس فأمر الواثق بدفع الرهان إلى الحسين .

* * *

خربت بغداد أيام حصارها فى الحروب بين جيوش طاهر بن الحسين وجيوش الأمين ففارقها من كان فيها فقال الخليع :

أتسرع الرحلة إغذاذاً عن جانبى بغداد أم ماذا
أما ترى الفتنة قد ألفت إلى أولى الفتنة شذاذا
وانتقضت بغـــداد عمرانها عن رأى لا ذاك ولا هذا
هدماً وحرقاً قد أباد اهلها عقوبة لاذت بمن لاذا
ما أخشن الحالات إن لم تعد بغداذ فى القلة بغداذا

* * *

وكان خزيمة بن خازم من القواد فى الحروب بين الأمين وجيوش المأمون وكان له يد فى قطع الجسر وإنهاء الحرب فى قصة طويلة راجعها فى الطبرى وكتب التاريخ فقال الحسين :

علينا جميعـــاً من خزيمة منة بها أخمد الرحمن ثائرة الحرب
تولى أمور المسلمين بنفسه فذب وحامى عنهم أشرف الذب
ولولا أبو العباس ما انفك دهرنا يبيت على عتب ويغدو على عتب
خزيمة لم ينكر له مثل هذه إذا اضطربت شرق البلاد مع الغرب
أناخ بجسرى دجلة القطع والقنا شوارع والأرواح فى راحة العضب
وأم المـــنايا بالمنـــايا مجيـــلة
تفجع عن خطب وتضحك عن خطب

فكانت كنار باكرتها سحابة
فأطفأت اللهب الملفف باللهب
وما قتل نفس فى نفوس كثيرة
إذا صارت الدنيا إلى الأمن والخصب
بلاء أبى العباس غير مكفر
إذا فزع الكرب المقيم إلى الكرب

* * *

خرج أبو نواس ومسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك والعباس بن الأحنف إلى متنزه ومعهم يحيي بن المعلى الطائى فأدركتهم صلاة المغرب فقدموا يحيي للصلاة فأرتج عليه فى سورة قل هو الله أحد فتعاطوا القول فيه فقال أبو نواس :

أكثر يحيي غلطا فى قل هو الله أحد

فقال مسلم بن الوليد :

قام طويلا ساهيا حتى إذا أعيا سجد

فقال العباس بن الأحنف :

يزحر فى محرابه زحير حبلى بولد

فقال الحسين بن الضحاك

كأنما لسانه شد بحبل من مسد

* * *

سأل المعتصم عن ندماء صالح بن الرشيد وهم أبو الواسع وقنينة والحسين بن الضحاك وحاتم الريش وكثير بن إسماعيل فأدخلوا عليه فكتب كثير بين عينيه « سيدى هب لى شيئاً » فلما رآه المعتصم قال : ما هذا على جبينك ؟ فقال أحد الندماء : يا سيدى تطايب بأن كتب على جبينه « سيدى هب لى شيئاً » فلم يستطب المعتصم ذلك ولا استملحه ودعا من غد بالندماء ولم يدع بكثير بن إسماعيل ففزع كثير إلى الحسين بن الضحاك فقال له الحسين : إنى لم أحلل من أنسه بعد بالمحل الموجب أن أشفع إليه فيك ولكنى أقول لك بيتين من شعر وادفعهما إلى حمدون بن إسماعيل يوصلهما فإن ذلك أبلغ . فقبل كثير ، وقال حسين على لسان كثير :

قل لدنيا أصبحت تلعب بى ... سلط الله عليك الآخره
إن أكن أبرد من قنينة ... ومن الريش فأمى فاجره

فأخذهما كثير وعرّف حمدون أنهما له وسأله إيصالها ففعل فضحك المعتصم وأمر لكثير بمال واستحضره وألحقه بأصحابه .

* * *

اجتمع على بن يحيى والحسين بن الضحاك وأبو شهاب الشاعر فتذاكروا الدواب واتصل الحديث إلى أن تلاحى حسين وأبو شهاب فى دابتيهما وتراهنا على المسابقة بهما فتسابقا فسبقه

أبو شهاب فقال حسين فى ذلك :

كلوا واشربوا هنئتمو وتمتعوا وعيشوا وذموا الكودنين(١) جميعا
فأقسم ما كان الذى نال منهما مدى السبق إذ جد الجراء سريعا

فقال أبو شهاب يجيبه

أيا شاعر الخصيان حاولت خطة سبقت إليها وانكفأت سريعا
تحاول سبقى بالقريض سفاهة لقدرمت جهلا من حماى منيعا

فكان ذلك سبب التباعد بينهما وكانوا إذا أرادوا العبث بالحسين يقولون له : أيا شاعر الخضيان فيغضب و يشتمهم .

* * *

فى كتاب مجالس ابن خنزابة عنوان « مجلس محمد بن زياد الأعرابى مع الحسين بن الضحاك بحضرة الواثق بالله وفيه أن ابن الأعرابى دخل على الواثق بالله فقرأ على الفتح بن خاقان شعر طرفة فقال :

. . . .

أشجاك الربع أم قدمه أم رماد دارس حممه

إلى أن بلغ :

تذكرون إذ نقاتلكم إذ لا يضر معدماً عدمه

فقال ابن الأعرابى : زد فيها ألفاً حتى تصير أتذكرون

(١) الكودن : الفرس الهجين .

فقال له الحسين بن الضحاك وهو نديم أمير المؤمنين وكان معه محمد بن عمر الرومى : قد خزم مرة بقوله : إذ لا يضر معدماً عدمه ويخزم بألف أخرى فى أوله ؟

والخزم هو زيادة حرف أو أكثر على أول شطر البيت من الشعر

فقال له ابن الأعرابى : العرب تخزم أول الشعر إذا احتاجت أن تصله بما قبله : تخزمه بالحرف والحرفين وأنشدهم شعراً لامرئ القيس :

فلعمرك ما سعد بخلة آثم ولا تأتأ يوم الحفاظ ولا حصر

فخزم بالفاء . وأنشدهم لغيره . . . فأعجب ذلك أمير المؤمنين وقالوا جميعاً هو أعلم بذلك منا يا أمير المؤمنين فجزاه خيراً وأمر له بعشرة آلاف درهم » .

وهذه القصة تبين لنا مقدار إدراك الحسين للشعر وعلمه بأوزان بحوره وأسماء زحافاتها وعللها وتبين منزلته بأنه نديم أمير المؤمنين .

* * *

وإذا ختمنا أخبار الحسين ونوادره فإنا لا نجد فى جميع هذه الأخبار والنوادر ذكراً لسبب تلقيبه الخليع ؛ فإن كان صاحب خلاعة فإن أبا نواس كان أكثر منه خلاعة ومجوناً . ويخيل إلىّ أنه

لقب بذلك لقوله :

أنـــا الخليع فقوموا إلى شراب الخليـــع

فالأدباء فى ذلك العصر وفى كل عصر قد يلقبون الشاعر أخذاً من لفظ يجرى فى شعره كما لقبوا مثلا مسلم بن الوليد بصريع الغوانى بقوله :

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا
وتغدو صريع الكاس والأعين النجل

أو لقوله :

صريع الغوانى راقهن ورقنه لدن شب حتى ابيض سود الذوائب

بعض شعره

. يقول أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد: « تتلخص أغراض المنتخبات الشعرية فى ثلاثة : أحدها أن نختار للشاعر ما ينبئ عن حاله وله فائدة فى التعريف بحقيقته النفسية أو بحقيقة عصره وسيرة حياته . وثانيها أن نختار له الحسن من شعره وإن لم ينبئ عن شيء من سيرته وخلقه. وثالثها أن نختار له ما هو حسن مستجاد من الوجهة الفنية سواء نظرنا إليه أو نظرنا إلى الحسن المستجاد من أقوال جميع الشعراء فهو فن حسن فى الشعر عامة وليس حسنه بمقصور على ما قاله الشاعر المختار له على التخصيص » وقد حاولت أن أوفق فيما اخترته هنا بين جميع هذه الأغراض كما حاول أستاذنا هناك فى كتابه « شاعر الغزل » .

هل لك فى الصبوح

أما ناجاك بالنظر الصحيح ... وأنّ إليك من قلب قريح

فليتك حين تهجره ضراراً ... تمن عليه بالقتل المريح

بحسنك كان أول حسن ظنى ... أما ينهاك حسنك عن قبيح

وما تنفك متهماً لنصحى ... بنفسى نفس متهم النصيح

أحب القيء من نخلات «باري»   وجوسقها المشيد بالصفيح
ويعجبني تناوح أيكتيها   إليّ بريح حوذان وشيح
ولن أنسى مصارع لاسكارى   ونادبة الحمام على الطلوح
وكأساً في يمين عقيد ملك   تزين صفاته غرر المديح
صريح مدامة هويت صريحاً   وهل تزرى الصريحة بالصريح
ألا يا عمرو هل لك في الصبوح   هلم إلى صفية كل روح
فقام على تخاذل مقلتيه   وسلسلها كأوداج الذبيح
وأتبـع سكرة سافت بأخرى   وخلى الصحو للكزّ الشحيح

أطيب الطيبات

أطيب الطيبات أمر ونهى   لا يردان في الأمور الجسام
وامتطاء الخيول في كنف الأم   ن بغير الإقدام والإحجام
وسماع الصهيل في لجب المو   كب تحت اللواء والأعلام

الغرماء

غزال ما اجتلاه الطرف إلا   تحيرني ملاحة وجنتيه
خذوا بدمى محاسنه وخصوا   مقبـله وبرد ثنيتيـه

لو رأى ما بك

إن من أطول ليل أمدا   ليل مشتاق تصابى فكتم

رب فظ القلب لا لين له لو رأى ما بك منه لرحم

روحان ممتزجان

إن من لا أرى وليس يرانى نصب عينى ممثل بالأمانى
بأبى من ضميره وضميرى أبداً بالغيب ينتجيان
نحن شخصان إن نظرت وروحا ن إذا ما اختبرت يمتزجان
فإذا ما هممت بالأمر أو هـ م بشىء بدأته وبدانى
كان وفقا ما كان منه ومنى فكأنى حكيته وحكانى
خطرات الجفون منا سواء وسواء تحرك الأبدان

أشكو لترحمنى

يا خلىّ الذرع من شجنى إنما أشكو لترحمنى
منعك الميسور ييئسنى وقليل اليأس يقتلنى

الرضا باعتذار الطيف

سقيا لزور من طيف محتجب عاتبته فى المنام فاعتذرا
فزال حقد الضمير عن سكن يسخطنى رائحاً ومبتكرا
رضيت من عذر من أقام على الذ نب بطيفٍ ألمّ معتذرا

معانى اتصال الخدود

صل بخدىَ خديك تلق عجيبا من معان يحار فيها الضمير
فبخديك للربيع رياض وبخدىّ للدموع غدير

قنوع المحب

وماذا يفيدك طيف الخيا ل والهجر حظك ممن تحب
غناء قليل ولكننى تمنيته بقنوع المحب

الصيد بالخال

يا صائد الطير كم ذا باللحظ تضنى وتصبى
نصبت نقطة خال فصدت طائر قلبى

فضة على ذهب

إذا ما الماء أمكننى وصفو سلافة العنب
صببت الفضة البيضا ء فوق قراضة الذهب

فى غلام اسمه رزق كان لعلويه المغنّى

يا ليت رزقاً كان من رزقى يا ليته حظى من الخلق
يا شادنا ملكته رقى فلست أرجو راحة العتق

عدمتك من قلب

تراك على الأيام تنجو مسلما؟ ولست ترى من غدرة أبداً بداً

ألست الذى آليت بالله جاهداً يميناً وخنت الله موثقه عمدا

ألا فى سبيل الله ود بذلته لمن خانني ودى ولم يرع لى عهدا

أباح حمى الميثاق والله بيننا فلم يبق للميثاق قبلا ولا بعدا

فلهيتك لا تجزى بما أنت أهله وإن كنت قد أشرقتنى بدمى حقدا

عدمتك من قلب أقام لغادر على العهد حتى كاد يقتلنى وجدا

كلفنى فلم أطق

وأحور محسود على حسن وجهه يزيد تماما حين يبدو على البدر

دعانى بعَينيه فلما أجبتـــه رمانى بأسباب القطيعة والهجر

وكلفنى صبراً عليه فلم أطق كما لم يطق موسى اصطبارا على الخضر

شكوت الهوى يوما إليه فقال لى مسيلمة الكذاب جاء من القبر

كان التسليم وداعا

بأبى من وددته فافـــترقنا وقضى الله بعد ذاك اجتماعا

فافترقنا حولا فلما اجتمعنا كان تسليمه علىّ وداعا

المعشوق

بعضى بنار الهجرمات حريقا والبعض أضحى بالدموع غريقا
لم يشك عشقاً عاشق فسمعته إلا ظننتك ذلك المعشوقا

تخبرنى عيناه

ومسترق للحظ لم يظهر الجوى يريد يناجينى فيمنعه الخجل
شكوت بطرفى ماأقاسى من الهوى إليه فأوما بالسلام على وجل
تخبرنى عيناه عما بقلبه وقدمات من وجد وليس له حيل
فعين إلى وجه الرقيب لخوفه وعين إلى وجه الحبيب إذا غفل

إلى كم

ألا أيها الشادن الأكحل إلى كم تقول ولا تفعل
إلى كم تجود بما لا نريد منك وتمنــع ما نسأل

تهنئة الأمين بظفر جيشه

أمين الله ثق باللـــه تعط العزّ والنصره
كل الأمر إلى الله كلاك الله ذو القدره
لنا النصر بإذن اللـــه والـــكرة والفره
وللمـــراق أعدائـــك يوم السوء والدبره

وكأس تورد الموت ‏ ‏ كريه طعمهـا مُره
سـقونا وسقيناهم ‏ ‏ فكانت بهم الحرّه
كذاك الحرب أحياناً ‏ ‏ علينا ولنا مـره

وصف للصيد ومديح للواثق

تحين للدراج فى جنباتـه ‏ ‏ وللغر آجال قدرن بكفكا
حتوفاً إذا وجهتهن قواضباً ‏ ‏ عجالا إذا أغريتهن بزجركا
أبحت حماماً مصعداً ومصوباً ‏ ‏ وما رمت فى حاليك مجلس لهوكا
تصرف فيه بين ناى ومسمع ‏ ‏ ومشمولة من كف ظبى لسقيكا
قضيت لبانات وأنت مخيم ‏ ‏ مريح وإن شطت مسافة عزمكا
وما نال طيب العيش إلا مودع ‏ ‏ وماطاب عيش نال مجهود كدكا

مديح للواثق ووصف

إلى خـازن الله فى خلقه ‏ ‏ سراج النهار وبـدر الظلم
ركبنا غرابيب زفـافـة ‏ ‏ بدجلة فى موجها الملتـطم
إذا ما قصـدنا لقاطولها ‏ ‏ ودهم قراقـيرها تصطدم
سكنّا إلى خـير مسكونة ‏ ‏ تيممها راغب من أمم
كأن بهـا نشـر كافورة ‏ ‏ لـبرد نداها وطيب النسم
كظهر الأديم إذا ما السحـاب صاب على متنها وانسجم

مـــبرأة من وحول الشتاء إذا ما طمى وحله وارتكم
فما إن يـــزال بهـــا راجل يمرّ الهوينا ولا يلتـــطم
ويمشى على رسله آمنـــاً سليم الشراك نـــقى القـــدم
وللنون والضب فى بطنها مراتع مســـكونة والنعم
غدوت على الوحش مغترة رواتع فى نَورها المنتـــظم
ورحت عليهـــا وأسرابها تحوم بأكنافهـــا تبتسم

* * *

يضيق الفضاء به إن غـــدا بطودى أعاريبه والعجم
ترى النصـــر يقـــدم راياته إذا ما خفقن أمام العـــلم
وفى الله دوخ أعـــــداءه وجرد فيهم سيوف النقم
وفى الله يكظم من غيظـــه وفى الله يصفح عمن جـــرم
رأى شيم الجـــود محمودة وما شـــيم الجود إلا قسم
فراح على « نعم » واعتـــدى كأن ليس يحسن إلا « نعم »

الترنم بمدائحه

سيبقى فيك ما يهدى لسانى إذا فنيت هدايا المهـــرجان
قصائد تمـــلأ الآفاق ممـــا أحل الله من بســـط اللسان
بها ينفى الكرى السارون عنهم ويلهو الشرب عن وترالقيان

راحة من قنع

نشبي وما جمعت من صفـــد وحويت من سبد ومن لبـــد
همم تقاذفت الهمـــوم بها فنزعت من بـــلد إلى بلد
يا رَوْح من حسمت قناعته سبب المطامع من غد وغد
من لم يـــكن لله متهمـــاً لم يمس محتاجـــاً إلى أحد

الســـاقى والخمر

قمـــر يحمـــل شمســـاً من رحيـــق الخسروان

المحاسن وأثرها

لقد ملأت عيني بحسن محاسن ملأن فؤادى لوعة وهمـــوما

حكم وتجاريب

حسبك من جهدك ما قضى الوطرْ من خاف أسرى ولياليه الحذر

* * *

وشـــباب المرء عـــارية تقتضى يوماً فـــترتجع

* * *

وجدت ألذّ العيش فيما بلوته ترقب مشتاق زيارة شائق

* * *

إذا شئت أن تلقى خليلا مُعبساً ... وجداه فى الماضين كعب وحاتم (١)
فحاوله عما فى يـــديه فإنمـــا ... تكشف أخلاق الرجال الدراهم

رثاء الأمين

أعزى يامحمد عنـــك نفسى ... معاذ الله والأيدى الجســـام
فهـــلا مات قوم لم يموتوا ... ودوفع عنـــك لى يوم الحمام
كأن الموت صادف منك غنما ... أو استشفى بقربك من سقام

وفى رثائه أيضاً

إذا ذكر الأمين نعى الأمينا ... وإن رقد الخلى حمى الجفونا
وما برحت منازل بين بصرى ... « وكلواذا » تهيج لى الشجونا
عراص الملك خاوية تهـــادى ... بها الأرواح تنسجها فنونا
تخوّن عرش ساكنها زمان ... تلعّب بالقرون الأولينا
فشتت شملهم بعد اجتماع ... وكنت بحسن ألفتهم ضنينا
فلم أر بعدهم حسناً سواهم ... ولم ترهم عيـــون الناظرينا
فوا أسفا وإن شمت الأعادى ... وآه على أمـــير المؤمنينـــا
أضل العرف بعـــدك متبعوه ... ورُفه عن مطايـــا الراغبينا

---

(١) كعب هو كعب بن مامة وحاتم هو حاتم الطائى وهما من الكرماء الأجواد .

وكنّ إلى جنابك كل يوم ... يرحن على السعود ويغتدينا
هو الجبل الذى هوت المعالى ... لهدته وريع الصالحونا
ستندب بعدك الدنيا جواراً ... وتندب بعدك الدين المصونا
فقد ذهبت بشاشة كل شىء ... وعاد الدين مطرحاً مهينا
تعقد عزّ مُتصل بكسرى ... وملته وذل المسلمونا

وفيه أيضا

أسفاً عليك سلاك أقرب قربة ... منى وأحزانى عليك تزيد

لوعة على أبى نواس

كابرنيك الزمان يا حسن ... فخاب سهمى وأفلح الزمن
ليتك إذ لم تكن بقيت لنا ... لم تبق روح يحوطها بدن

العظة بمقتل المتوكل والفتح بن خاقان

يا نائم الليل فى جثمان يقظان ... ما بال عينك لا تبكى بتهتان
إن الليالى لم تحسن إلى أحد ... إلا أساءت إليه بعد إحسان
أما رأيت خطوب الدهر ما فعلت ... بالهاشمى وبالفتح بن خاقان

على مقبرة وامرأة تبكى

قال أبو العتاهية :

أما تنفك باكية بعين غزير دمعها كمد حشاها

فقال الحسين :

تنادى حفرة أعيت جواباً فقد ولهت وصم بها صداها

الشغل الأكبر

يا من شَغلتُ بهجره ووصاله همم المنى ونسيت يوم معادى
والله ما التقت الجفون بنظرة إلا وذكرك خاطر بفؤادى

التفاح والخمر

الراح تفاح جرى ذائباً كذلك التفاح راح جمد
فاشرب على جامده ذوبه ولاتدع لذة يوم لغد

تأديب

أتانى عنك ما ليس على مكروهه صبر
فأغضيت على عمد وقد يغضى الفتى الحر
وأدبتك بالهجر فما أدبك الهجر

ولا ردك عمـــا كـــان منك النصح والزجر
فلما اضطرنى المكروه واشـــتد بى الأمـــر
تنــاولتك من ضرى بما ليس لـــه قـــدر
فحركت جنـــاح الـــذل لما مســك الضر
إذا لم يصـــلح الخير امـــرءًا أصـــلحه الشر

الأباريق والشاربون

كأن أباريق المـــدام لديهمو ظباء بأعلى الرقمتين قيـــام
وقد شربوا حتى كأن رقابهم من اللين لم تخلق لهن عظام

ضيعة

أتبعت سكراً بسكر وابتعت خمـــراً بعمر

فى عينه الجواب

أما تقـــرأ فى عيـــنَىّ عنوان الذى عندى

حال جسمى

لشتان إشفاقى عليك وقسوة أطلت بها شجو الفؤاد على العمد
وما حلت للهجران عن حال صبوة إليك ولكن حال جسمى عن العهد

ما يليق بالقبيح القطوب

« سابور » ويحــــك ما أخســــك بل أخصّك بالعيــوب
وجــــه قبيـــح فى التبســــم كيف يحسن فى القطوب

أحن إلى شهر المحرم

بنفسى حبيب أمّ مكة مكرهاً يعالج مستوراً من الحزن والألم
كلانا وحيد لا يسر بمؤنس
من الناس حتى تنقضى الأشهر الحرم
أحن إلى شهر المحرم ليتــه غداةغدقد كانأو بان وانصرم
ألام على شغلى بمن أنا شغله
إذا طاف أو أفضى إلى الركن فاستلم
سترنا بظهر الغيب ما كان بيننا ونحفظ عهدينا على رغم من كتم

يا ليت ظنى كاذب

بجرمة السكر وما كانــا عزمت أن تقتل إنســانا
أخاف أن تهجرنى صاحيا بعد سرورى بلك سكرانا
إنّ بقــلبى روعة كلمــا أضمر لى قلبك هجــرانا
يا ليت ظنى أبدا كاذب فإنه يصــدق أحيــانا

حب مغن فارسي

«وروى لابن يسير»

وصوت لبـــنى الأحـــــرار أهل السيرة الحسنى
شجى يـــأكل الأوتــــار حتى كلها يفنى ؟؟
فما أدرى اليـــد اليسرى به أشتى أم اليمـــنى
وما أفهـــم ما يعـــنى مغنينــــا إذا غنى
سوى أنى من حـــبى لـــه أستحســـن المعنى

ما يضيعه اللهو

محب نـــال مكتتما منـــاه وأسعده الحبيب على هواه
أضاع اللهو أنفس ما يعانى وما عذر المضيع لمـــا عناه
فأصبح لا يـــلام بما جنـــاه من التقصـــير إنسان سواه
أسر ندامة الـــكسعى لمـــا رأت عينـــاه ما فعلت يداه


سندباد
مجلة الأولاد في جميع البلاد
تصدر كل يوم خميس
مغامرات
قصص
ثقافة
تسلية
رئيس التحرير
محمد سعيد العريان
تصدرها دار المعارف بمصر
تطلب من باعة الصحف والمكتبات



ابنتی تحب بیبسی کولا